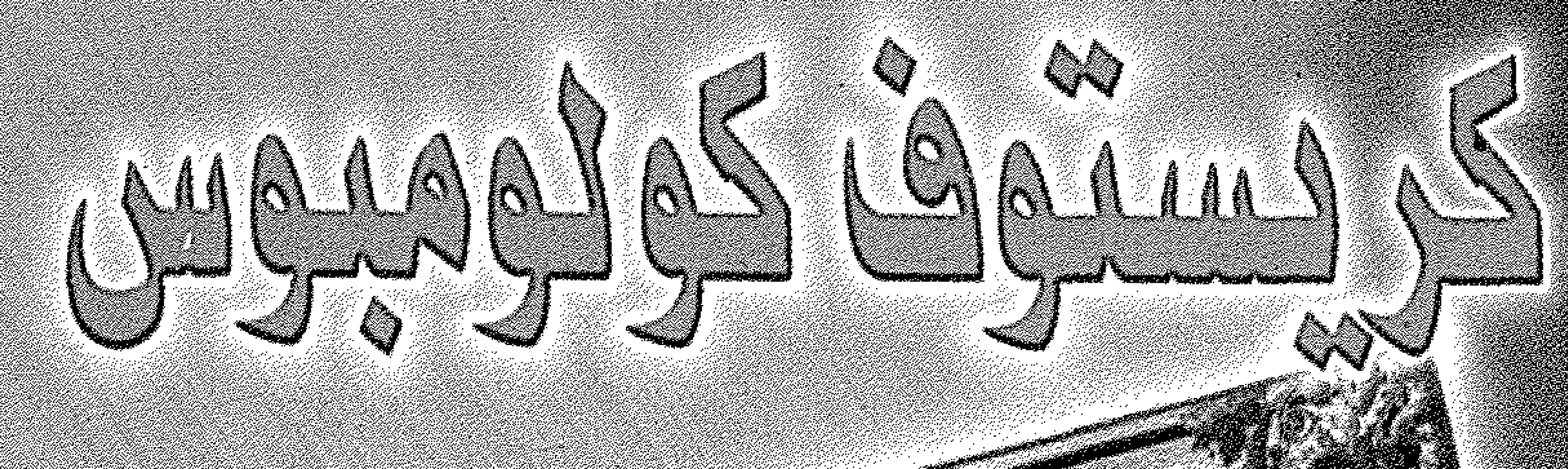
أعلام مبرّزون

من الشرق والغرب



دار الشرق العربي

كريستوف كولومبوس

1451 — 1506 م

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرّزين من الشرق والغرب

---

1 ـ الإسْكندَر الأكبر	2 ـ هنيبَعل
3 ـ أبو العلاء المعرّي	4 ـ ابنُ بطُّوطة
5 ـ ابنُ خلدون	6 ـ كريسْتوف كولومبوس
7 ـ وليَم شكسْبير	8 ـ نابوليون بُونابرت
9 ـ ليون تُولسْتوي	10 ـ المهاتما غانْدي

كتبها وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

أعــلام مــبــرزون
من الشرق والغرب

كريستوف كولومبوس
1451 ـ 1506م

دار الشرق العربي
حلــب ـ ســوريــة ـ ص.ب:415
بيروت ـ لبنان ـ ص.ب: 11/6918

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبها وأشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي
حلب ــ سورية ــ ص.ب: 415

الطبعة الأولى 1998 م - 1419 هـ
الطبعة الثانية 2000 م - 1421 هـ
الطبعة الثالثة 2002 م - 1423 هـ

طبــع فــي : المطبعة الحديثة ـ حلب

مقدمة

عُرِفَ الإنسانُ منذُ فجْرِ التاريخِ بميْلِـــهِ إلـــى اكتِشافِ المجْهولِ وتحمُّلِ أعظمِ المشاقِّ في سبيل ارتيادِهِ، وكان البحثُ عن الـــرزقِ والمراعـــي ومناهِلِ المياهِ حافزَ الرُوّاد في اندفاعهم لاكتشافِ البقاعِ الجديدة من الأرضِ التي لم تطأهـــا قـــدمُ الإنْسان قبلهم، فإذا تمَّ لـــهم مـــايُريدون فـــازُوا بالثرواتِ الكبيرةِ، وأحيطُوا بهالاتٍ من المجْـــدِ والشُّهْرة، ونظرَ الناسُ إليهم بالإكبارِ والإعْجاب، **وفي القُرونِ الخمْســـةِ الأخـــيرةِ ازدادَ نشـــاطُ الرُوّادِ**، واتَّسعَ عنْ طريقِ اكتشافاتِهِمْ العالمُ القديمُ الـــذي كـــان معروفـــاً للفينيقيّيـــن واليونـــانيين

والرومانيين اتساعاً عظيماً حتى شملَ الكُرة الأرْضيَّةَ بأسرها، فرسمَتْ لها الخرائط المُفصَّلة والمُصوَّرات الدقيقةُ، ثم اتَّجهَ طموحُ الرُوّادِ إلى اكتِشافِ الفضاءِ مع تقدُّمِ المُخْترعاتِ والوسائلِ العلميةِ الحديثة، **وقد حقَّقَ الإنْسانُ انتصارات مذهلةً في رُبْعِ القرنِ الأخير**، بوصُولهِ إلى القمرِ وإرسالهِ مراكبَ الفضاء تكشِفُ الأسْرار المجهولة لِلسّماءِ وكواكِبِها، ولنْ يقفَ طُموحُ الإنسان في اكتشافِ المجهولِ عندَ حدٍّ، والمستقبلُ سيشْهدُ فتوحات علميةً في هذا المِضْمار، لمْ تكُنْ لِتخطُرَ على بالِ أحدٍ من الناسِ.

ومهْما يكنْ خطرُ تلكَ الاكتشافاتِ عظيماً فـــي تاريخ البشريةِ، فإنَّ **اكتشافَ أمريكا** في النصــفِ الثاني من القرنِ الخامس عشر الميــلادي **يظــلُّ من أكبرِ الأحداثِ** الخطيرةِ في عالمِ الارْتيادِ، لما كان لهُ من الأثر العظيم فـــي تــاريخِ العُمــرانِ البشريِّ، باكتشافِ قارَّةٍ جديدةٍ منْ أغنى القارّات الأرضيةِ، واستيطانِها وإقامة دولةٍ مـــن أعْظــمِ الدُّولِ ثروةً وأشدّها منعةً فوق أرضِها، من بيــنِ تلك الدولِ الأُخرى التي اتسعتْ لها أرضُ تِلـــك القارّةِ الغنيَّةِ الجديدةِ.

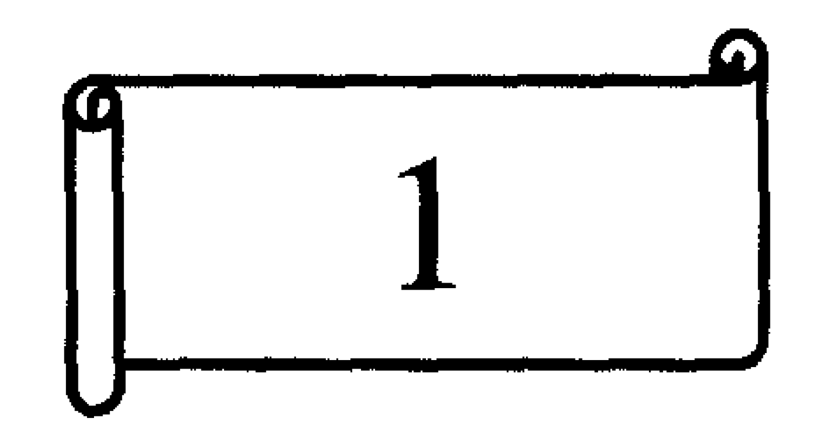
ولهذا كلّه يكونُ حديثُنا عن مُكْتشِفِ أمريكـــا الرائدِ العظيمِ **كريســـتوف كولومبـــوس** مُمتعـــاً

ومُفيداً: ففي عرضِ سيرةِ حياتِهِ الحافلةِ بآيــــاتِ النُّبوغِ والمجدِ والطُّموحِ درْسٌ وعِبْرة للقـــارئِ العزيزِ: فقدْ تحمّلَ كولومبوس أعظــمَ المشــاقِّ، وتعرَّضَ لِلمهالكِ، واستهانَ بالأخْطــــارِ، حتــى تمكّنَ من تحقيقِ حُلمِــهِ فــي اكتِشــافِ الأرضِ الجديدةِ، ثم عانى بعد ذلك من حسدِ الحاســـدين وكيدِ الكائدين ما يجعلُ حِكاية حياتِهِ مأســاةً، وإنْ غدا في التاريخِ واحداً من الأعــــلام المُــبرِّزين الخالدين.

الباب الأول

نشأة كولومبوس وتكوينه

1451 ــ 1476 م



في مدينة **جنوى**، الميناء الإيطاليِّ المشهورِ، ولِدَ كريستوفُ كولومْبُوسُ عام 1451، من أسـرةٍ فقيرةٍ، فقد كانَ أبوه دومينيكُ حائكاً يعمـلُ فـي تمشيطِ الصوفِ، وقد ورثَ عـن آبائـهِ هـذه المهنةَ، كما كانتْ أمه من أسـرةٍ تسـكنُ فـي ضواحي جنوى، وتمتهنُ حياكةَ الصوفِ أيضاً.

نشأ الصبيُّ في هذا المحيطِ العُمَّاليِّ الفقيرِ، فعلَّمهُ أبوه صناعتهُ، وعندما كـــبرتِ الأســـرةُ، وأصبحَ لدومينيكُ ثلاثةُ صبيان وبنـــتٌ واحـــدةٌ، ووجدَ أن مهنةَ الحياكةِ لا تستطيعُ إعالةَ الأسرةِ، عمدَ الرجلُ إلى ممارسةِ التجارةِ، إلـــى جـــانب مهنتهِ، ليكسبَ ما يكفيه للإنفـــاقِ علـــى أولاده، وأدخلَ ابنه كريستوفَ المدرسة ــ **مدرسةَ بافيـــا الجامعة** ــ فتعلمَ فيها مدَّة فنَّ الخـــطِّ ومبـــادىء الهندسةِ وعلمَ الجغرافيةِ وعلم الفلكِ، **وظـــــهرت براعتهُ الكبيرةُ فـــي رســـم الخرائـــط**، وتـــركَ المدرسةَ في الرابعةَ عشرةَ من عمره، لســـبب لا نعلمهُ، والتحقَ بإحدى السفنِ ملاَّحاً وجندياً، على

عادةِ الملاحينَ في عصرِه، ويبـــدو أنَّ لمدينـــةِ جنوى ـ مسقطِ رأسهِ ـ بمينائها الكبير علــى البحرِ الأبيضِ المتوسطِ، والعامرِ دوْماً بالسَّـفُن الذاهبةِ والآيبةِ، أثراً في **تعلُّـق الفتـى بـالبحرِ والملاحةِ البحريةِ**، ومدينةُ جنوى كــانتْ قبـلَ ولادةِ كولومبوسَ بأكثر من ثلاثـةِ قُـرون قـد تمكنتْ من تكوينِ قوةٍ بحريةٍ عظيمةٍ أعانتها فـي القرنينِ الثالثَ عشر والرابعَ عشـر الميلاديينِ على إنشاء إمبراطوريـةِ جنـوى الاسـتعمارية وازدهارِ حركتها التجاريةِ معَ أقطـارِ الدّنيـا، واستطاعت جنوى بذلكَ أن تزوِّدَ العالمَ بأمـهرِ الملاحينَ الذين كانوا يجوبونَ البحارَ على متـنِ

سُفنهمِ، ويحملُون البضائعَ التجاريةَ إلى كلِّ ميناء من موانىء الدُّنيا، ويقايضُون عليها، ويعـــودون بالأرباحِ الوفيرةِ إلى بلدهمِ، **ولهذا كانَ ملاَّحـــو جنوى منْ أمهرِ الناس في فنِّ الملاحةِ البحريةِ،** وهمُ الذين علموا هـــذا الفـــنَّ الأمـــمَ الأخـــرى كالإسبانيينَ والبرْتغاليينَ والفرنسيين والعثمانيينَ، وبذلكَ أوجدوا لهم منافسينَ في البحـــارِ بعـــدَ أن سيطروا عليها وحدهمُ أمداً طويلاً.

وعند ولادةِ كولومبوسَ كانَ مجـــدُ مدينتـــهِ العظيمةِ آخذاً في الأفولِ، فبعدَ بلوغِ جنـــوى أوْجَ نفوذها بدأتْ تتراجعُ وتنـــهارُ، لعـــدةِ أســـباب، أهمها: المنازعاتُ الداخليةُ بينَ فئـــاتِ ســـكانها،

واقتتالهم صراعاً على الحكـــمِ، وازديـــادُ قـــوةِ العثمانيينِ الناميةِ وسيطرتهم على البحرِ الأبيضِ المتوسطِ، بالإضافةِ إلى هجماتِ جيوشِ البندُقيـــةِ على جنوى ومنافستها الدائمةِ لها.

وكان على مدينةِ **جنـــوى** أن تتخلـــى عـــن أهدافها الاستعماريةِ وتقتصر في ملاحتها علـــى التجارية، وما أسرعَ ما غدا أهلُ جنـــوى مـــن أبرعِ الناسِ في التجارةِ وتحقيقِ الأرباحِ الوفـيرةِ عن طريقها، وكان ميناء **البلدةِ يشـــهدُ قوافـــلَ المهاجرينَ من الجنوييِّين إلى أصقاعِ الدنيا**، وهمٌّ كلِّ واحدٍ منهم أن ينجح في مهجرهِ في تعـــاطي التجارةِ وتكوينِ المصارفِ وجني المالِ.

في هذا المُحيطِ قضى كولومبوس طفولتــهُ، وكثيراً ما نجدُ مؤرخي حياتهِ يتحدثونَ عن تلــكَ الساعاتِ الحالمةِ التي كان الصبيُّ يقضيها فــي ميناء جنوى، وهو يراقبُ السفنَ، ويشهدُ غُدوهــا ورواحها، أو يتحدَّثُ إلى بحارتــها وملاحيــها، ويستمعُ إلى الأخبارِ العجيبةِ التي ينقلونها بعــد أسفارهم الطويلةِ، عن ا لبلادِ التـــي زاروهــا، والموانىء البعيدةِ التي أرسوا مراكبهمِ فيها، **وقد ازدادَ تعلقُ الصبيِّ بالبحرِ والسُّـــفُنِ وركوبــها** والإبحارِ فيها إلى تلك الآفاقِ البعيدةِ التي يحلــمُ بالوصولِ إليها.

والحقُّ أنَّ ما نعرفه عن طفولـــةِ الصبــيِّ وتكوينه الدراسي شيء يسيرٌ جداً، قبلَ أنْ يــهجرَ

الصبيُّ مدرسته وهو في الرابعةَ عشرةَ من عمره، ليغدُو بحاراً على ظهرِ إحدى السفنِ، **ويقومَ ببعضِ الرِّحلاتِ التي بلغَ بها شاطىء أفريقية الغربيَّ**، حيثُ كادَ القراصِنةُ أنْ يأسروه، وفي رحلةٍ أخرى **وصلَ إلى شواطىء إسبانيةَ وفرنسةَ**، وزارَ انكلترة، ويرجحُ أنه أبحرَ شمالاً حتى وصلَ إلى أيسلندةَ.

2

هذا الملاحُ الفتى اليافعُ، استهوته الملاحـــةُ البحريةُ، فهجرَ المدرسةَ ليلتحقَ بـــها، ويقــولُ مؤرِّخو حياتهِ إنَّ **أول رحلةٍ بحريـــةٍ قــام بـــها كولومبوسُ كانت رحلةً تجاريةً**، فعندمـــا تــركَ أبوهُ (**جنوى**) للإقامـــةِ فـــي مدينـــةِ (**ســافونَ**) وتعاطي تجارةِ (الجبن) فيها أوفد ابنه كريستوفَ في رحلةٍ بحريةٍ ليشتري لــــه البضـــائعَ التـــي يريدُها، ثم **توالتْ رحلاتُ الفتـــى علـــى ظـــهرِ السُّفنِ**، حتى إذا اشتدَّ ساعده ــ فيمـــا قيــل ــ جعلَ رئيساً على سفينةٍ وأرسلَ إلى تونسَ، ليوقعَ

بسفينةٍ من سفنها، وفي عـــام 1470 م كســرتْ سفينتهُ عند رأسِ (سانت فنْسانت) في الطـــرفِ الجنوبيِّ الغربيِّ من بلادِ البرْتغالِ، وكادَ يلقـــى حتفهُ غرقاً، لولا تعلقهُ بلوحٍ خشـــبيٍّ بلـــغَ بـــه الساحِلَ، فارتمى على البرِّ وهـــو فـــي النفـــسِ الأخيرِ.

كانتْ **هذه الرِّحلاتُ هي المدرسةَ البحريـــةَ العملية** التي تعلم فيها كولومبوس أســرار فـــنِّ الملاحةِ وقيادةِ السفنِ، وكان الفتى في حماســـتهِ وتعلقهِ بالبحر مؤمناً بأنَّ القدرَ يعــــدُّه للمِلاحـــةِ البحريةِ ويؤهِّلُهُ لاكتشافِ الآفاقِ المجهولةِ مـــن البحارِ البعيدةِ، فيزدادُ بذلكَ ميـــلُ الفتـــى إلـــى

المغامرةِ وركوبِ المخـــاطرِ، ويــزدادُ **شـــغفُهُ بمُطالعةِ الكتبِ التي تصفُ الأصقـــاعَ البعيـــدةَ كالصِّينِ والهندِ**، وينكبُّ على دارسةِ المصوراتِ والخرائطِ التي رسمها القدامى لتلكَ الأجزاء مـن المعمورةِ، ولا يـــترددُّ فـــي الحصـــولِ علـــى معلوماتٍ إضافيةٍ عنها من البحارةِ والملاحيـــنَ الشيوخِ ليستفيدَ من تجاربهم، ويضيفَ المعلوماتِ التي يجمعها منهم إلى تلك التي يجدُها في الكتبِ والخرائطِ.

وهكذا استقرَّ في نفسِ الفتى ــ وهـــو فـــي فورةِ حماسةِ الشباب وطموحهِ المتوثِّـــب إلـــى تحقيقِ أحلامهِ ــ إيمانٌ لا يتزعزعُ بأنَّ الله أعدَّهُ

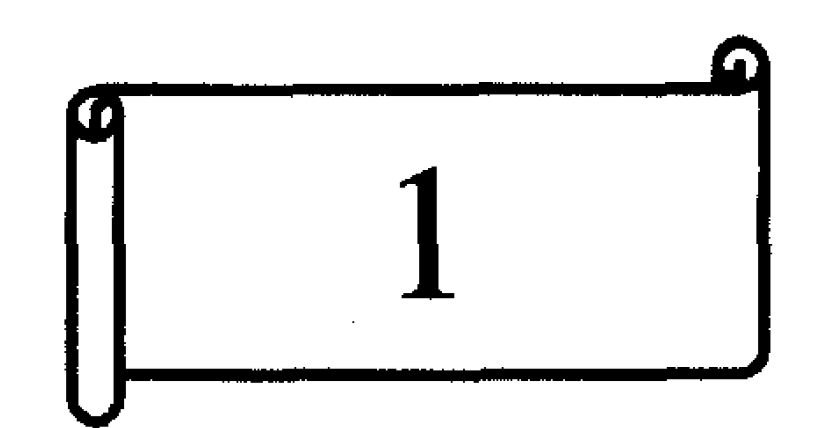
للقيامِ بمهمةٍ مقدسةٍ حينَ غرسَ في قلبه الميـــلَ إلى **اكتشافِ المناطق المجهولـــةِ مــن الأرضِ، ليهدي سكانـها إلى عبادتهِ!** وسيكونُ لهذا الإيمانِ أثرهُ في تحملِ كولومبـــوس الأهـــوالَ وصـــبرهِ العظيمِ على المحنِ والآلامِ، وهـــو يســيرُ فـــي الطريقِ الشاقةِ الطويلةِ نحو هدفهِ الأعظم، ولولا هذا الأيمانُ العميقُ بنفسه لكانَ اليأسُ في بعــضِ المراحلِ قد بلغَ به منتهاه، وحـــالَ بينـــه وبيـــنَ الوصولِ إلى حلمهِ الأكبرِ.



الباب الثاني

كولومبوس في البرتغال

1476 ــ 1485 م



حطَّ كولومبوسُ رحالـــهُ فـــي (لشــبونةَ) عاصمةِ البرتغالِ، ويبدو أنَّ كثيراً من الملاَّحيـــن الذين يتحرقونَ شـــوقاً للتوغُّـلِ فـــي أعمـــاقِ المحيطاتِ، رغبةً في اكتشافِ جُزُرٍ جديدةٍ، كانوا يحومونَ حوْلَ **بلاطِ الملك يوحنّـــا الثـــاني** فـــي لشبونةَ ليفوزوا بموافقته وتمويله لـــهم وحمايتــه

إياهم، ليبحروا في رحلاتهم الاكتشافيةِ، ويجعلُوا من ا لأراضي الجديدةِ التي يرتادونها مستعمرات برتغاليةً، **وكانَ البرتغاليونَ يشجِّعون أولئك الملاَّحينَ الرُوَّادَ**، ولهذا عزمَ كولومبوسُ على الإقامةِ في لشبونةَ، وكانت المدينةُ المطلةُ على المحيطِ تعجبهُ، وتتيحُ له أن يُرسلَ منها نظراتهِ الحالمةَ إلى الآفاقِ البعيدةِ من المحيطِ، والأسرارِ المجهولةِ التي يتمنى أن يتمَّ اكتشافها على يديه، وراء تلكَ الآفاقِ النائيةِ.

كانَ كولومبوسُ يسْكُنُ بيتاً في حيِّ الجنويِّين في لشبُونةَ عامَ 1476 م وقد أتمَّ **الخامسةَ والعشرينَ من عمرهِ**، وكانَ لا ينقطعُ عن

الاستماعِ إلى البحارةِ والملاحيـــنَ فـــي ميـنـــاء لشبونةَ، ويوالي دراسةَ علمِ الجغرافيـــةِ وعلـــمِ تكوينِ الأرضِ، وعلمِ الفلكِ، ومرَّتْ سنوات أربعُ على كولومبوس في لشبونةَ، وهو يوالـــي تلـــكَ الدراساتِ، ويعدُّ نفسه لرحلةٍ بعيدةٍ، وكان يكسبُ حياتهَ خلالَ تلك الفترةِ من رسمِ الخرائط البحريةِ والبريةِ وبيعها، **وقدْ أتقـــنَ كولومبـــوسُ رســـمَ الخرائطِ إتقاناً مشهوداً**، وكانَ ماهراً في رســمها منذُ يفاعتهِ، وفي نهايةِ هذه الفترةِ التقى الشـــابُّ بفتاةِ أحلامِه، الآنسةِ **فيليبيا مونيز بريســـتريلُّو**، وهي ابنةُ رجلٍ إيطاليٍّ الأصلِ، كانَ من ربابنـــةِ البحرِ المشهورينَ، ثم غدا حاكِماً على جزيـــرةِ **(بُورْتو دو سانتُو)** منْ قبلِ ملكِ البرتغالِ، وهـــي

جزيرة صغيرة قرْبَ جزائرِ ماديرا الواقعةِ فـــي غربيٍّ المغربِ الأقصى، وكانتْ أمُّ فيليبيا السيدةُ ايزابيل مونيز إحدى قريبات الأسرةِ المالكةِ فـي البرتغالِ، وانتــهى الحُــبُّ الـذي جمـع بيـن كريستوف وفيليبيـا بعقـد قرانـهما، **وأصبـحَ كولومبوسُ زوْجـاً لتلـكَ الفتـاةِ** ذاتِ النَّسـبِ العريقِ، وصحبها للإقامةِ فـي تلـك الجزيـرةِ الصغيرةِ، وهناكَ أعطاهُ حموهُ كلَّ ما كان لديـه من خرائطَ وآلات بحريةٍ، وعلّمهُ كلَّ ما كـان يعرفهُ من تجاربِ حياتهِ الطويلةِ عـن الرياحِ والتياراتِ البحريةِ غربَ جُزُرِ ماديرا، وهكـذا أفادَ كولومبوس من والدِ زوجته إفادة عظمـى، وتابعَ الاستماعَ إلى البحـارةِ الوافديـنَ علـى

الجزيرةِ الصغيرةِ، وكانَ يباحثهم ويصغي إلــــى أحاديثهم عن أسفارهم والمشاقِّ التي لقوها فـــي رحلاتهمِ إلى أعماقِ المحيطِ، وانتهى من كلّ مــا قرأ وسمع إلى الاعتقادِ **بأنَّ جانبــاً كبــيراً مــن الأرضِ ما يزالُ مجهولاً لدى الأوربيينْ**، ولمـــا كانَ كولومبوس يقدِّرُ أنَّ الأرض كرويةٌ فقدْ ظنَّ أن في الإمكانِ الوصولَ إلى طرفِ آسية الشرقيِّ بالإيجار غرباً، وكانَ عــددٌ مــن النـاسِ قبــلَ كولومبوس قد ارتأوا مثلَ هذا الرأي، وكانَ أحــدُ البَحارةِ البرتغاليين قد أبعدَ يوماً بسفَينته مدفُوعــاً بتيارٍ عنيف مقدارَ ألف ومائتيْ ميلٍ غربيَّ رأسِ **(سانتْ فانسانت)** فوجدَ قطعةً من الخشب طافيــة على ظهرِ الماء، وفيها آثارٌ تدلُ علــــى أنَّ يــدَ

الإنسانِ قد عملتْ بها، كما كانتْ ، أنابيب كبـيرة من القصبِ تلقي بها الريـــاحُ الغربيـــةُ **عنـــدَ سواحلِ جُزُرِ ماديرا وبورتو دو سانتو**، وكـــانَ الأنبوبُ الواحدُ منها يسعُ قرابةَ خمسِ ليـــترات من الماء، وهي من القصبِ الذي لا ينبتُ إلا في بلاد الهندِ، وقد رأى كولومبوس تلك القصبـــاتِ وقطعةَ الخشبِ المحفُورِ فازدادتْ قناعتهُ بأنَّ تلكَ الأشياء قد أتتْ من أرض مجهولةٍ عبرَ البحـــر، وامتلأ يقيناً بأنهُ إذا واصلَ الإيجارَ غرباً فسـيبلغُ **بلادَ الهندِ**، وأنهُ في طريقهِ إلـــى تلـــكَ البـــلادِ سيكتشفُ كثيراً من جُزُرِ الهندِ المجهولةِ!

أفادَ كولومبوس من سكناهُ في جزيرةِ **بورتو دو سانتو** أطيبَ الفائدةِ، في إنضاجِ مشـــروعهِ

لارتيادِ تلكَ الجُزُرِ المجهولةِ واكتشافها، **وقدَّمتْ له حماتهُ أمُّ زوجتهِ فيليبيا جميعَ الأوراقِ والمصوراتِ التي تركها زوجها بعدَ وفاتهِ،** فانكبَّ كولومبوسُ على دارستها والاستفادةِ منها، حتى اكتملَتْ لديهِ صورةُ مشروعهِ العظيمِ الذي أصبحَ يملكُ عليهِ لبهُ، ويدْفُعه إلى التفكيرِ في السُّبلُ العلميةِ لتنْفيذه.

وفي عامِ 1481 م رزقَ كولومبوسُ ابنه **(ديغُو)** بعدَ عامٍ واحدٍ من زواجهِ من فيليبيا، وكانتْ حياتهُ الزوجيةُ سعيدة في أسرتهِ الصغيرةِ، ولكنَّ القدرَ لم يشأ لهُ الاستمرارَ فيها ففي عامِ 1483 م توفيتْ زوجتهُ الحبيبةُ، وكانَ ولدهُ في الثانيةِ من عمرهِ، فحزنَ الزوجُ لوفاتها

أشدَّ الحُزنِ، ويتساءلُ بعضُ مؤرِّخي حياتهِ: هـلْ كانتْ وفاةُ زوجتهِ سبباً من أسبابِ انطلاقهِ للقيـامِ بمغامرتهِ الكبيرةِ ورحلتهِ الاكتشافيةِ الخطيرةِ؟

2

فكرَ كولومبوسُ فيمَـــن يَسْــتَطيعُ أنْ يمـــدَّهُ بالمالِ والرِّجالِ للانطلاقِ في تَنْفيـــذِ مشـــروعهِ واتّجهَ في بدايةِ الأمرِ إلى مجلسِ **جنوى** مســـقطِ رَأسهِ مطالباً إياهُ بتمويلِ المشروعِ، فلـــمْ يحفـــلْ أبْناء وَطَنهِ بِمَشْروعهِ ورَفَضوا طَلَبـــه، فاتّجـــهَ الرجلُ بِأنْظارهِ إلى **يوحنّا الثاني** ملكِ البرتغـــالِ، **وغادرَ جزيرةَ بورتو دو سانتو إلـــى لشـــبونةَ** عاصمةِ البرتغالِ ليكونَ قريباً من بـــلاطِ الملـــكِ الذي يأملُ أنْ يلقى عونْهُ وتمويله للقيامِ برحلتـــه الاكتِشافيّةِ، **وكان الملكُ يوحنّا الثـــاني مُتلـــهِّفاً**

للبحثِ عَنِ البُلدانِ الجديدةِ، وحينَ تلقى طلبَ كولومبوس أشارَ عليه أحدُ الأساقفة بأنْ يُرْسِلَ سَفينةً تَبحرُ بعيداً غربيَّ المحيطِ، خفيةً عن كولومبوس، ففعلَ وأرسلَ سفينةً ظلَّتْ تبحرُ غرْباً حتى يئس بحارتها من طول الشُقَّةِ فعادُوا أدْراجهم إلى لشبونة، وعرفَ كولومبوسُ ذلكَ فازداد ألماً وغيظاً، وأدْركَ أن **ملكَ البرتغالِ قد خدعهُ** وغدر بهِ وخيبَّ الآمال الكبيرةَ التي عقدها على مساعدتهِ ودعمهِ، والحقُّ أنَّ موقفَ الملكِ من مشروعِ كولومبوسَ لم يكنْ مشجِّعاً، لأسباب كثيرةٍ: إما لأنَّهُ لَمْ يَجد في مَشْروعهِ غيرَ مُغامرةٍ خياليةٍ لا فائدةَ من القيامِ بها، وإما **لأنَّ**

صاحبَ المشروع لم يكن بُرتغالياً، فلمْ يشـــأ أن يدعمهَ ويمنحه امتيازات يؤثرُ بـــها مواطنيـــه، ولهذا أرسلَ تلـــكَ السـفينةَ مـــن وراء ظـــهرِ كولومبوس، لينفذَ المشروعَ من دونهِ، وإمـــا لأنَّ الملكَ البُرتغاليَّ كانَ يُفضِّلُ أن يتَّجهَ الملاحـــونَ الروَّادَ إلى أنْ يدوروا حولَ أفريقيـــة ليكتشـــفوا طريقاً جديدة إلى الهندِ، ومهما يكنْ فقـــدْ **بـــاءتْ جُهودُ كولومبوس في لشبونة بالإخفاقِ**، بعد أنْ قضى عامين في العاصمةِ البرتغاليةِ، في انتظارِ موافقةِ الملكِ على دعمِ مشروعهِ، وكانَ خـــلالَ ذلك قد **استقدم إليها أخاهُ "بارتلميه"** وهو أصغرُ مِنْه بِعشرِ سَنوات، **فَعَكَفا معـــاً علـــى** دارِســـةِ

المَشْروعِ من جميعِ جَوانبهِ بِصَبرٍ وأناةٍ، وهمـــا يَحْلمانِ باكتشافِ تلكَ **الجزُرِ المجهولةِ، بما فيها من أشجارٍ عاطرةٍ، وتوابلَ وافرةٍ، وذهب كثـيرٍ،** فلما أيقنا منْ رفضِ الملكِ البرتغاليِّ للمشــــروعِ أسرع كولومبوس بالكتابة إلى ملـــــك الإنكلـيز **هنري السابعِ** يعْرضُ عليهِ مشروعه ويطلبُ منه دعمه وتمويلهُ، مع الوعدِ بأنْ يكتشــــفَ الأرضَ الجديدةَ باسمهِ، وكان على (بارتلميه) أنْ يحمـــلَ كتابَ أخيه كولومبوس إلى إنكلترا ليحاولَ إقناع ملكها بدعمِ المشروعِ وتَمْويله وتزويدِ الأخويـــنِ بالسفنِ والبحارةِ الأقوياء للانطلاقِ في تنفيـــذهِ، أما **كولومبوسُ فكانَ عليه أنْ يغـــادرَ البُرتغـــال**

إلى إسبانية لعلَّهُ يجدُ فيها مـــن يقتَنِـــعُ بأهميـــةِ مشروعهِ وجدواهُ ويكونُ قـــادراً علـــى دعمـــهِ وتمويلهِ ومساعدةِ ذلكَ البحَّارِ الجنويِّ في تحقيـقِ حلمهِ الكبيرِ.

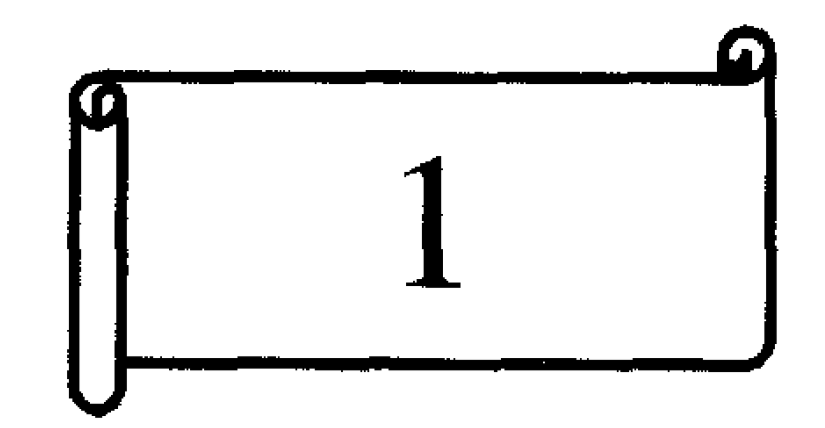
وهكذا غادر كولومبوسُ عاصمةَ البرتغـــالِ يائساً حزيناً، ومعهُ طفْلُهُ الصغيرُ (**ديغـــو**) وقـــد أصبحَ في الخامسةِ من عمرهِ، قاصداً إســـبانيةَ، ليجربَ حظَّهُ ويوالي سعيه وراء هدفهِ، وكـــانَ ذلك حواليْ عام 1485 م.



الباب الثالث

كولومبوس في إسبانية

1485 — 1492 م



كانتْ إسبانية في الرُّبعِ الأخيرِ من القــــرنِ الخامسَ عشرَ الميلاديِّ تسيرُ قدُماً نحو اســـتعادةِ وحدتها **وتكوينِ مملكةٍ قويةٍ**، وقد تمَّ لـــــها ذلـــك **باتِّحادِ مملكتي قشتالةَ وآراغونَ بزواج ايزابيـــلاّ ملكةِ قشتالةَ وفِرْديناندَ ملكِ آراغونَ**، وقــــامتْ مملكةُ إسبانية باتحادِ عرشيهما، وراحتْ توالــــي حربها للعربِ، لإخراجهم من بلادها، وفي عـــامِ

1479 ازداد عرشُ إسبانيةَ الموَحَّدُ قوة بانتصارهِ على **البُرتغالِ**، العدوِّ التقليديِّ لإسبانيةَ، وقد **كانتِ الدولتانِ تتنافسانِ على الطرق البحريةِ والتجارةِ الدَّوليةِ واكِتشافِ الأراضي الجديدةِ لضمِّها إليها**. كذلك كانتِ الحالُ في إسبانيةَ عنَ وصولِ كولومبوسَ إلى ميناء (**بالُوسَ**) الواقعِ على ساحل المحيطِ جنوبيَّ الأندلسِ، ومعهُ طفلهُ الصغيرُ (**ديغو**)، ولم يلبثِ الرجلُ أن قادَ ابنه إلى ديرٍ للرهبانِ يقعُ على بعدِ كيلو مترين من ميناء بالوس، فاستقبلهُ رئيسُ الرهبانِ بالترحيب، وقد أصغى الراهبُ إلى حديثِ كولومبوس بعنايةٍ وهُوَ يروي لهُ حكاية مشروعهِ الكبيرِ وآمالهِ التي يرجو تحقيقها بدعمٍ من بلاطِ قرطبةَ،

فشجعهُ الراهبُ، وأبـــدى لــــه اقتناعـــهُ بنجـــاحِ مشروعهِ، ووعده بأنْ يقدِّمَ إليهِ كلَّ مساعدة يقدرُ عليها، فامتلأت نفسُ كولومبوسَ غبطةً ورضى، وهو يستمعُ إلى كلماتِ هذا **الراهبِ الكبير، فـــي ديْر (لارَابيدا) واسمه (جُوان بـــــيريز)**، وكـــانَ لحسن حظِّ كولومبوسَ قسيســـــاً خاصـــاً لملِكـــةِ إسبانية ايزابيلا،وسيكونُ لهُ دورٌ في إنجاحِ مهمةِ كولومبوس في البلاطِ الإسبانيِّ بعد بضعِ سنوات كما سنرى، وسيذكرُ المكْتشِفُ العظيمُ دائمـــاً أنَّ ذلك **الراهبَ الكبيرَ كانَ الرجلَ الوحيـــدَ الـــذي ساعدهُ**، وهكذا أوْدعَ كولومبوس ولده الصغـــيرَ ديغو في عنايةِ رهبانِ الدَّير، واتجه إلى مدينـــة اشبيليةَ، وكانتْ يومذاك مركزاً تجارياً مزدهـــراً،

وكانتْ **جاليةٌ كبيرة من أهلِ جنوى تقيـمُ فيـها للتجارة**، فاتصلَ كولومبوس بمواطنيهِ هـؤلاء، ولقي منهم كلَّ عون، واستطاع أنْ يتعرَّفَ عـن طريقهم ببعضِ التجـار الأغنيـاء مـن نبـلاء الإسبانِ، من أمثال دوق "ميدنياسلّى" الذي كـان يملكُ اسْطولاً للتجارةِ البحرية، وقد رحبَ هـذا الدُّوقُ بالملاَّح الجنويِّ ومشـروعهِ وعـزمَ أنْ يجهِّزُه بثلاث من سفنهِ للقيامِ بالرحلةِ المنشـودة، ثم تَبيَّنَ له أنَّ المشروعَ أكبرُ من طاقته الفرديـة، وأن **كولومبوسَ بحاجةٍ إلى ملك يدعمُ مشروعه ويتبناه، ودولةٍ تستطيعُ حمايتهُ مـن سـيطرةِ البرتُغال على طرقِ البحـارِ**، وحينـذاك عـزم كولومبوسُ على الاستعانةِ بملكِ فرنسةَ، غيرَ أنَّ

الدُّوقَ صرفهُ عن عزمِه، وكتــبَ إلــى الملكــة ايزابيلا يتوسلُ إليها أن تنتظــرَ إلــى مشــروعِ كولومبوس بعينِ العطفِ، والرعايــةِ، لأهميتــهِ وخطرهِ، وألاَّ تدعَ صاحبه يتجهُ إلى ملك آخــرَ، فتحرمَ إسبانيةَ من فوائـــده العظيمــةِ ونتائجــه الخطيرةِ! وتلقتِ الملكةُ كتابَ الـــدُّوقِ وأمــرتْ بمجيْء كولومبوس إلى قرطبة! **وهكــذا وصــلَ الرجلُ إلى العاصمةِ الإسبانيةِ** بعد عــامينِ مــن الانتظارِ، وقد ظنَّ أن آمالهُ قــد غــدتْ قريبــةَ المنالِ!

2

استقبلَ كولومبوسُ فـــي البـــلاطِ الملكــيِّ بقرْطبةَ استقبالاً مُشجعاً، **واستمعَ الملكُ والملكــةُ إلى عرضهِ لمشروعهِ الكبيرِ** ووعدا بأنْ يحيـــلا طلبهِ إلى لجنةٍ لدراستهِ والبـــتِّ بشـــأنهِ، وكـــان العرشُ الإسبانيُّ يومذاك في شغلٍ شاغلٍ عن كلِّ شيء بالحرب الدائرةِ بينَ الأسبان والعربِ فـــي غرناطةَ، فكان على كولومبوس أن يقـــدِّمَ إلـــى **اللجنةِ المؤلفةِ من بعـــضِ الرُّهبـــانِ والنُّبـــلاء خطوطَ مشروعهِ ويناقشـــها معـــهم**، وينتظـــرَ قرارهم بالمشورةِ بدعْمِ المشـــروعِ أو رفضـــهِ،

وهكذا قضى صاحبُ المشروعِ العظيم أســـابيعَ طويلةً، يناقشُ اللجنةَ الملكيةَ، وينتقلُ معها مـــن بلدٍ إلى آخر في إسبانيةَ، عندَ انتقالهِا الدائبِ، ولم تكنِ اللَّجنةُ في عجلةٍ من أمرها، وقـــد رفــضَ بعضُ أعضائها أن يُصدِّقَ بأنَّ الأرضَ يمْكنُ أنْ تكونَ كُرويـــةً، وطـــالَ انتظـــارُ كولومبـــوسَ، والحربُ مع العربِ طالَ أمدُها، والملكةُ ايزابـــلاّ مشغولةٌ بها عن كولومبوسَ ومشـــروعهِ، غـــيرَ أنها لم تُغفلِ الأمر بإكرامِ الرجُلِ وتقديمِ إعانـــةٍ ماليةٍ إليهِ، وبذلكَ **أتيحَ** لهُ أنْ يقيمَ فـــي **قرطبـــةَ فترة طويلةً**، يختلـــطُ خلالـــها بمواطنيـــه مـــن الجنويينَ المقيمينَ في العاصمةِ الإسبانيةِ، وهكـذا تعرَّفَ كولومبوسُ إلى الشابةِ الجميلةِ **(بياتريسَ)**

وكانتْ قد أتمتِ العشرينَ من عمرها، فتزوَّجها، وولدتْ له ابنه الثاني **فرديناندَ** عام 1488.

وأخيراً اجتمعتِ اللَّجنْةُ الملكيةُ للمرةِ الأخيرةِ بعد قرابةِ أربعِ سَنوات من تأليفها لِتصْدرَ قرارها بأنّ **مشروعَ كولومبوسَ خياليٌّ**، وأنَّ الرحلةَ التي يقترحُ القيامَ بها عبثٌ، ولكنَّ كولومبوسَ ظلّ مصمماً على واقعيةِ مشروعهِ، وتحدَّى اللجنةَ بأنَّهُ سوفَ يحققُ الاكتشافَ المنشودَ، وراحَ يبحثُ عن أبوابٍ أخرى يطرقُها لطلبِ العونِ!

كانتْ **مهمةُ أخيه (باتلميه) في انكلترة قد انتهت إلى الإخفاقِ أيضاً**، ذلك أن ملكها هنري

السابع كانَ رجلاً حذراً وحريصاً على ا لمـــالِ، وقد استقبلَ (بارتلميه) وأصغـــى إلـــى عرضـــهِ المفضلِ لمشروعِ أخيه، ولكنهُ قدّر أن الرحلَـــة المُنْتظرَة لَنْ تَصِلَ إلى أهدافهاِ، فلم ينشـــطْ إلـــى تبني المشروعِ، **وهكذا شاء القـــدرُ إلا تصبـــحَ أمْريكا الجنوبيةُ مُسْتعمرةً إنكليزيّةً.**

عند ذلكَ طلبَ كولومبوسُ من أخيهِ أن يعبرَ البحرَ إلى **فرنسةَ** ليطلبَ المساعدةَ مـــن ملكـــها شارل **السابعِ** ، ففعل ولم تكـــن النتيجـــةُ التـــي وصلَ إليها خيراً مما لقي في بلاطِ انكلترة، ولـــم يبقَ أمامَ كولومبوسَ غيرُ أنْ ينتظرَ **قرار اللجنـــةِ الثانيةِ** التي أمر ملكُ إسبانية بتأليفـــها لدراســـةِ المشروعِ من جديدٍ، وصدرَ ذلكَ القرارُ أخـــيراً،

فكانَ تـأييداً لقـرار اللجنـةِ الأولـى، ووجدَ كولومبوسُ في عام 1491 م نفسه أمـامَ خيبـةٍ كاملةٍ، فعزمَ على مغادرةٍ إسبانيةَ، واتجـهَ إلـى ديرِ (لآرابيدا) حيثُ تـركَ طفلـه قبـلَ بضْـعِ سنوات، وهناكَ حدثَ ما ردَّ إليه ثقتـه بنجـاحِ مسعاهُ، فقد تلقاهُ الراهبُ الكبيرُ جُوان بيريز بكلِّ محبةٍ وعطف، وهو قسيسُ الملكـةِ الخـاصُّ ـ كما قدَّمْنا ـ وكتبَ إلى الملكةِ يطلبُ مسـاعدتها لكولومبوسَ، وما أسرع ما جاء جوابها إليه: فقـد أرسلتْ **ايزابلا لكولومبوسَ مبلغاً مـن المـالِ، ليشتري ثياباً فاخرة وجـواداً، ويـأتي فـوراً لمقابلتها!.**

لقَد أصبْحَ الأمرُ الآنَ لا يَحْتاجُ إلى اللِّجانِ، ووصلَ كولومبوسُ إلى **غرناطةَ** في الوقتِ الذي تمَّ فيه تسليمُ العربِ إياها إلى الأسبانِ، **واستقبلتِ الملكةُ كولومبوسَ** وحدها، **وأبدت موافقتها على تبيني مشروعهِ**، ثم استقبلَ ثانيةً في البلاطِ الملكيِّ، ووُ**عِدَ بتقديمِ السُّفُنِ اللازمةِ** للقيامِ بالرِّحلةِ المنشودةِ، وكان ذلك في عام 1492م بعد سبعِ سَنوات من الانتظارِ الطويلِ في إسبانية!

لقد جاوزَ كولومبوسُ الآنَ الأربعينَ من عمرهِ، وملَّ من كثرةِ ما شرحَ المشروعَ للمَسؤولينَ، وقد كانَ أكثَرهُم يَنْظرون إلَيْهِ نَظَرة

هزلٍ واستخفاف، وكانَ بعضهمُ لا يكتمُ سخريته به وهزْأه، ولكنَّ الرجلَ اعتصمَ بالصَّبرِ والجلدِ، ولمْ يركنْ إلى اليأسِ في أحلكِ الظروف العصيبةِ، ولم يقبلِ الهزيمةَ بعدَ صدور القرارِ بفسادِ المشروعِ وبطلانهِ، بالاستدلالِ بكثير من آياتِ التوراةِ وأقوالِ آباء الكنيسةِ، وظلَّ كولومبوسُ يتحدى بإصراره على إمكانيةِ تحقيق مشروعهِ جميعَ الخصُومِ، حتى تخطى جميع العقباتِ، ووافقَ البلاطُ الملكيُّ الإسباني على تبني المشروعِ ودعمهِ، وطلب من كولومبوس أن يُبَيِّنَ **الشروط التي يشترِطها لكشفِ البلادِ الجديدةِ:** فطلبَ مالاً يكفي لتجهيز ثلاث سفن

بالرجالِ والعتادِ والمؤنِ، واشترط أن يتمَّ ترقيتـــه إلى **رتبةِ أميرِ البحرِ** (أميرالِ المحيـــطِ) فـــوراً، وأنْ يجعلَ **والياً علـــى جميـــعِ البلـــدانِ، التـــي يكتشفها**، وأن يعطى **عُشْرَ الثروةِ التي ســـتجنى من الأراضي الجديدةِ، مع امتياز تحويلِ ألقابـــهِ وحصَّتهِ منَ الثَّروةِ إلى ذُرِّيتهِ!** ودهشَ البــــلاطُ الملكيُّ أمامَ هذهِ المطالبِ واعتبرها غير معقولـــةٍ أبداً، وصدرَ أمْـــرُ الملكيـــنِ **برفِـــضِ الشُّـــروطِ المطلوبةِ**، ولكنَّ كولومبوسَ لم يتراجعٍ شيئاً عـــن مطالبهِ، وخرجَ منَ البلاطِ الملكيِّ عازماً علــــى مغادرةِ إسبانيةَ واللَّحاقِ بأخيهِ في فرنسةَ، ولكنـــهُ

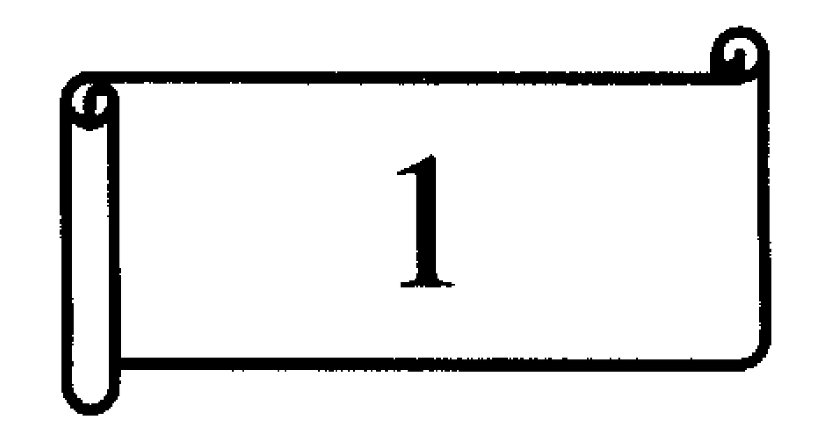
لم يكدْ يبتعدُ بجوادهِ عدةَ أميالٍ حتى لحـــقَ بـــه رسولُ الملكينِ يستدعيهِ للعودةِ إلى البلاطِ!

لقد قُبلتْ جميعُ شُروطهِ، وتمَّ توقيعُ الاتفــاق على ذلكَ في السابعَ عشرَ من نيسان عـلم 1492م وانطلقَ كولومبوسُ ليســـتعدَّ للقيـــامِ بمغامرتـــهِ البحريَّةَ الكبرى.

الباب الرابع

الرحلة الأولى

1492 ــ 1493 م



لم يكنْ إعدادُ السُّفُنِ والبحَّارةِ للقيــامِ بتلــكَ الرحلةِ بالأمرِ السَّهلِ، إذْ **من العَســيرِ أنْ تجــدَ عدداً كافياً من المغامرينَ** الذين يرضــونَ بــأنْ يخاطروا بأنفسهم، مثل كولومبوس، في أعمــاقِ المحيط ومجاهل البحار، مهما تكن المُغرياتُ لهم كبيرة، وقــد وضحــتْ هــذه الحقيقــةُ لعينــي

كولومبوس إثرَ وصولهِ إلى ميناء **بالوسَ** لتدبير السُّفُنِ اللازمةِ والعددِ الكافي من البحارةِ للرِّحلةِ القادمةِ، وكانَ **الأمرُ الملكيُّ** الذي أعطيَ لكولومبوسَ ينُصُّ على **تغريمِ مدينةِ بالوسَ** التي امتنعَ أهلها عن دفعِ الضرائبِ للدولةِ **بأنْ تقدمَ على نفقتها ثلاثَ سُفُنٍ مشحونةٍ بالرجالِ**، وقد أدْركَ كولومبوسُ أن المدينةُ التي ترفضُ دفعَ ما عَليها مِنَ الضّرائبِ يُمكنها أن ترفضَ إطاعةَ الأمرِ الملكيِّ الذي يحملهُ إليها، وذاكَ ما أيقنَ من حصوله عندما وصلَ إلى بالوس وأبرزَ الأمرَ الملكي إلى أهاليها، فقابلوه بالسخريةِ، **وزعمُوا له أنَّ جميعَ السفنُ الراسيةِ في ميناء المدينةِ**

غيرُ صالحةٍ للقيامِ بتلكَ الرِّحلةِ إلى المجـــهولِ!
وقد كادَ اليأسُ يشلُّ عزيمةَ كولومبـــوسَ وهـــو الذي قدَّر أنَّ آماله الكبيرةَ كلها قد غدتْ قريبـــة التحققِ بعدَ تذْليلِ جميعِ العقباتِ الماضيةِ، ولكـــن الحظَّ لم يلبثْ أنْ واتاهُ، حينَ تعرَّفَ في بـــالوسَ إلى **رُبَّانيْنِ أخوين شُجاعينِ من آلِ بنزُن**، وهما مارتنِ آلونزو بنزون وشـــقيقه فيســنت يـــانز بنزون، وهما من ذوي الخـــبرةِ الكبـــيرةِ فـــي الملاحة البحريةِ، وفي بعضِ المصادرِ أنَّ مارتن بنزون كانتْ له رحلةٌ إلى البرازيلِ عـــامَ 1489 **معَ بعضِ الرَّبابنةِ الفرنسيينَ**، وكانوا انطلقـــوا من مدينةِ ديب، ثم عادُوا من رحلتـــهم محـــاذينَ

لساحلِ افريقية الجنُوبيِّ، إلى أنْ وصلُــــوا إلـــى رأس الرَّجاء الصالحِ، ثمَّ رجعوا إلى مدينةِ ديب، وتقولُ تلكَ المصادرُ إنَّ مارتن بنزون كانَ رجلاً حادَّ الطبعِ، فاختلفَ مع بعـــضِ الســكانِ فــوقَ الأرضِ البرازيليةِ، وأطلقَ عليهم النـــارَ، فأنبــهُ رئيسه واقتصَّ منه، ولما عادتِ السُّفنُ إلى ديــب شكاهُ إلى الحكومةِ فصادرتْ جوازَ سفرهِ ومنعتهُ من السَّفر بحراً، فعادَ إلى إسبانية ماشياً، والحــقُّ أن جميعَ **هذه المعلوماتِ بحاجةٍ إلـــى التحقيــق** قبلَ الإيمانِ بصحتها، وإلا فإن مارتن بنزون هذا يكونُ قد وصلَ إلى أمريكا قبـــلَ كولومبــوسَ، وسنعرضُ لهذا الأمرِ ثانيةً فيما بعدُ.

عندما التقى كولومبوس بالأخوين الربّانين في بالوس كانا يَمْلكان سفناً، وهُنا حَقيقةُ أهَميتهما، وبَعْد عِناءٍ شديدٍ تمكّن كولومبوس مِن إعدادِ **أسْطولٍ من ثلاثِ سُفنٍ شراعيةٍ صغيرة**، بمساعدتهما، وقد دخلتْ هذه السفنُ التاريخَ من أوسعِ أبوابه، وغدتْ منْ أشهر المراكب البحريةِ التي عرفها تاريخُ البحارِ، بعد قيامها بأعظمِ رحلةٍ فاقتْ بنتائجها الباهرةِ كل ما أنجزهُ أيٌّ إنسان من الرحالةِ حتى اليوم!

أولى هذه السفنِ اسمها "**سانتا ماريا**" وهي أكبرُ الثلاثِ، ولم يكنْ ظهرها يزيدُ طوله عن سبعين قدماً، وقد ضمتْ خمسين بحاراً، وجعل

كولومبوس قيادتها لنفسهِ، والسفينةُ الثانيةُ اسـمها "**البنتا**" وكانتْ في نصفِ حجمِ الأولـى، وفيـها ثلاثونَ بحاراً، وجعل كولومبوس قيادتها في يـدِ مارتن بنزون، والسفينةُ الثالثةُ اسـمها (**النينـا**) وهي أصغرْ الثلاثِ، وبحارتها حوالي العشـرينَ وجعلت قيادتها إلى أخي مارتن: فينسنت بنزون، وتؤكدُ بعضُ المصادرِ أن السفينتينِ (بنتا ونينـا) كانتا ملكاً للأخوينِ القائدينِ، وأن اشتراكهما فـي رحلةِ كولومبوس كان بدافـعِ الطمـعِ والأمـلِ بالحصولِ على الثرواتِ التي كان كولومبـوسُ يتحدثُ عن وجودها "هناك" أما (سانتا ماريا) فقد استأجرها كولومبوس من صاحبها، وجهزها من

الأموالِ التي قدِّمتْ له من العـــرشِ الإســباني، ومن المبالغِ الأخرى التي قدمتها إليــه الجاليــةُ الجنوية المقيمةُ في إسبانيةَ!

هذا **الأسطولُ الصغيرُ، بســفنهِ الشــراعيةِ الثلاثِ، وبحَّارته المائةِ من الرجال المغــامرينَ**، كان **يستعدُّ للإبحارِ نَحْوَ المجهولِ** فــــي بحــارٍ شديدةِ العواصفِ، غير مأمونةِ العواقبِ، وقدْ قـلم الأخوانِ بنزون بدورٍ كبيرٍ في إقنـــاعِ البحــارةِ وتشجيعهم للاشتراكِ في الرحلةِ، وكـــان أكــثرُ أولئكَ البحارةِ من الرجال الأندلسيينَ والباسكيين، وكان بينهم بعـــض ضبــاطِ الملــكِ، وبعــضُ المترجمين، الذين يحسنونَ عدداً مـــن اللغــاتِ،

واشتركَ ابنُ عمٍّ بياتريس، زوجةِ كولومبــــوسَ، في الرحلةِ، كما التحقَ بها موظف ملكيٌّ لمراقبة الحقوق الماليةِ الملكيةِ، وثلاثةُ أطباء، وعددٌ مــن الحرفيين الذين تحتاجُ إليهم السفنُ، وعــددٌ مــن خبراء المدافعِ التي كانت السفنُ الثلاثُ مـــزودةً بها، وتذْكرُ بعضُ المصادر أنَّ **جملةَ النُّفــوسِ على ظهرِ ذلكِ الأسطولِ الصغيرِ لم تــزدْ علــى مائةٍ وعشرين رجلاً**، وقد حملتِ السفنُ لهم مــن الطعامِ والمؤونةِ ما يكفيهم لمدَّةِ عامٍ كاملٍ: مــن اللحــمِ والجبــنِ والزيــتِ والخــلِّ والبصــلِ والبسكويتِ، حتى غدتِ السُّفُنُ الثــلاثُ محملــةً بأقصى طاقتها!

لقد أصبحَ كلٌّ شيء معداً لابتداء الرحلـــــةِ، وجاء اليومُ المحدَّدُ لإبحارِ الأسطولِ الصغـــيرِ، وكانتْ **مدينةُ بالوسَ كلها تبارك الراحلينَ** عليـــهِ وتصلي من أجلهم، وكانَ الأميرالُ كولومبـــوسُ ــ وهو المعروفُ بعمقٍ إحساسهِ الدينيِّ ــ قـــد صحبَ رجالهُ جميعاً إلى دير **(لارابيدا)** القريـبِ، **وصلَّوا جميعاً لله، راجينَ أن يبارك مشـــروعهم** وينجح مساعيهم، وييسرَ أمامهم الطريقَ الطويـلَ إلى هدفهم العظيمِ، وكان الراهبُ الكبيرُ جـــوان بيريز، صديقُ كولومبوس ومُشجِّعهُ الدائمُ ومعينهُ الوفيُّ، هو الذي قادَ صـــلاةَ الرَّجـــاء، وبـــاركَ بخشوعٍ وإيمانٍ موكبَ المسافرينَ، داعياً لـــهم الله بالتوفيقِ والسلامةِ.

ورفعتْ أشرعةُ السُّفُنِ الراحلةِ عند الفجـــرِ منْ يوم الجمعة في الثالثِ من شـــــهرِ آب عـــام 1492، وتحرَّكَ الأسطولُ الصغيرُ مبتعـــداً عـــن رصيفِ الميناء، في مدينة بالوسَ، وبدأتْ بذلـــكَ رحلةٌ بحريةٌ هي ــ دونَ ريب ــ **مـــن أعظـمِ الرِّحْلاتِ أهميةً في تاريخِ البشريةِ.**

2

كانتِ السفينةُ **(سانتا ماريـــا)** تســيرُ فـــي المقدمةِ، وكان المودعونَ من الناسِ فـــي مينـــاء بالوس ينْظُرونَ بإشفاق إلى السُّـــفنِ الراحلـــةِ، ويَقولُ أحدُ منْ أرَّخوا حياةَ كولومبوسَ: "لقد نظرَ جَميعُ المودعينَ إلى بحارة "سانتا ماريا" و "بنتـا" و"نينا" في ذلك الوقت كما كنا ننظر إلى رجـــال الفضاء الأولِ حينَ انطلقوا إلى القمرِ في رحلتهم الأولى، ورحلةُ البحارةِ كانتْ أشدَّ خطراً، لأننـــا نعلم أنَ القمرَ الذي تنطلقُ إليه المركبةُ الفضائيـة موجودُ!" أما هدفُ أولئكَ البحارةِ فهوَ مجـــهولٌ.

تماماً! ولكن كولومبوسَ كـــانَ شـــديدَ الإيمـــانِ بمشروعهِ والثقةِ بنجاحهِ، **واتجهتِ السُّفنِ نحـــو جزُرِ الكناري**، وهي أبعدُ الجزُرِ المعروفةِ غرباً، وبعد ثلاثةِ أيام من انطلاقـــها أصيبـــتْ (بنتـــا) بضررٍ كبيرٍ، بانفصالِ قسمٍ مـــن الدَفـــةِ عنـــها وضياعهِ، فاضطرَّ كولومبوسُ أن يرسوَ بســـفنهِ في مرفأ (**تناريفَ**) مدينةِ كناري ليصنعـــوا لـــها دفةً غيرها، وقيلَ إنَّ بعضَ البحارةِ قد تعمـــدوا تعطيل تلكَ الســـفينةِ، لأن شـــجاعتهم خانتـــهم، وأمَّلوا أنْ يرتدَّ كولومبوسُ إلى بالوسَ لإصـــلاحِ الدَّفةِ المعْطوبةِ!

ولكنّ كولومبوسَ لم يكنْ ليرتدَّ إلى الـــوراء أبداً، فأسرع إلى نجدةِ السفينةِ المصابةِ، وواصـلَ

الرحلةَ حتى جُزرِ الكناري، حيثُ قضى شهراً كاملاً في إصلاح الدفَّةِ المكسورةِ، وفي اليومِ السادسِ من أيلول انطلقَ الأسطولُ الصغيرُ من جديدْ في **رحلتهِ نحو الغرب، نحو مصيرهِ المجهولِ.**

وحكايةُ هذهِ الرحلةِ الاكتشافيةِ الأولى من رحلات كولومبوسَ الأربعِ تعتمدُ على **مذكراتهِ اليوميةِ** التي كانَ يُسجلها يوماً بعدَ يومٍ، ويخاطبُ فيها ملكيْ إسبانيةَ، فرديناند وايزابلا، وقد جاء في الصفحة الأولى من تلك المذكراتِ:

"أبحرْتُ صباحَ الجمعة في الثالثِ من آب قاصداً جزرَ كاناري التي تملكانها، ومن هناكَ سأمضي

في طريقي حتى أبلغَ جزرَ الهندِ، ولذا **عزمتُ على أنْ أكتبَ مذكراتي طوال الرحلة**، فأصف في الليل أحداثَ النهارِ، وأصفَ في النهارِ أحداثَ الليلِ، كما أنوي أنْ أرْسمَ خريطة ملاحةٍ جديدةٍ أشيرُ فيها إلى وضعِ الأراضي الواقعةِ في البحرِ المحيطِ بالنسبةِ إلى الرِّياحِ..".

ومِنْ خِلالِ هذه المذاكراتِ اليوميةِ عن الرحلةِ نعرفُ أنَّ السُّفنَ تابَعتْ طريقَها في الأسبوعِ الأوَّل دون مُكدِّرٍ، والآمالُ تغمرُ صدورَ البحارةِ بالنجاحِ والتوفيق، وكانَ كولومبوسُ يُسجِّلُ المسافاتِ التي يقْطعُونها كلَّ يومٍ، وقد لاحظُوا بعدَ الأسبوعِ الأولِ انحرافاً متزايداً في

بوصلةِ السفينةِ عنِ الجهةِ الشماليةِ شطرَ الشمالِ الغربيِّ، فارتاعَ البحارةُ لذلكَ، و"**خافُوا أشدَّ الخوفِ**" كما يذكرُ كولومبوسُ في مذكراتهِ، وقد نجح في تطمينِ نفوسهم بتعليلٍ قدَّمه إليهم ــ وهو تحرّكُ النجمِ الشماليِّ ــ فصدَّق البحارةُ زعمهُ، وكتمَ هو قلقهُ في صدرهِ، إذْ لم يكن الرائدُ العظيمُ يعلمُ حينذاكَ أنّ الشمالَ المغناطيسي الذي تشيرُ إليه البوصلةُ ليس هو الشمالَ الحقيقيَّ، وأنَّ اتجاههُ يختلفُ باختلافِ الأماكنِ على سطحِ الأرضِ!

وتابعتِ السُّفُنُ رحلتها نحو المجهولِ، **ولم تظهر في الأفق جُزُرُ الهندِ المنشودةَُ**، حتى فقدَ

البحارةُ صبرهم، وراحوا يتذمَّرونَ، واعتقـــدوا أنَّهم قد ضلوا الطريقَ وهلكوا، وألـــحّ بعضـــهم على كولومبوس بوجوبِ العودةِ، ولكنَّ الرجُـــلَ الكبيرَ لم يفقدِ شجاعتهُ وإيمانُه وثقتهُ بمشـــروعهِ ونجاحِهِ القريبِ، فتصدَّى للمتذمِّرينَ، يقنعهم بـــأنَّ اليابسةَ غدَتْ قريبةً منهم، ووضعَ جائزة ماليـــةً لأوَّلِ بحارٍ يبشرهم برؤيتها!

وظنَّ بعضُ البحارةِ يوماً أنـــه رأى الـــبرَّ، فانتعشتِ الآمالُ من جديدٍ في الصدورِ، ولكنـــهم عند بزوغِ الفجرِ تبينَ لهم أنَّ ما حسبوه يابسةً لم يكنُ غيرَ غيمةٍ منخفضةٍ في الأفق، فكان لـــهذه الخيبةِ أثرها في زيادةِ التذَمُّرِ، وفي اليومِ الحادي

عشر من تشرين الأولِ بدأت علامات مشـــجعةٌ كثيرة تظهرُ للأعينِ المترقبةِ، فبعد **رؤيةِ أعـــدادٍ من الطيُّورِ التي لا يمكنُ أنْ تطيرَ بعيداً جداً عن اليابسةِ** التقط البحارةُ غصْـــنَ شـــجرةٍ وقطعـــةَ خشَبٍ حفرها إنْسان، فَأيقنَ الجَميعُ بقُربهم مـــن البرِّ، وفي مَساء ذلكَ اليوم شـــاهدَ كولومبـــوس نوراً في الأفقِ، وفي الساعة الثانيةِ صباحـــاً رأى أحدُ البحارةِ البرَّ، وهو فوقَ أعلى ســـاريةٍ مـــن سواري النينا فصاحَ يحملُ النبأ العظيمَ إلى رفاقهِ ويبشرهم بذلك، وآمنَ البحارةُ حينذاكَ أنَّ **وعـود كولومبوسَ لهم لم تكنْ سراباً خادعاً!**

3

مع إشراقةِ شمسِ اليومِ الثاني عشــــر مــن تشرين الأول من عام 1492 ألقتِ السُّفنُ الثــلاثُ مَراسيها على ســاحلِ تلــكَ الجزيــرةِ، وهبــطَ الأميرالُ كولومبوس عند الصباحِ إلـــى الأرضِ، وهو يلبسُ حُلةً فاخرة، ويحملُ العلمَ الإســـبانيَّ، وهبطَ الأخَوان بنزون مِــنْ سَــفينتيْهِما أيضــاً، وركَعَ الجميعُ في صلاةِ شكرٍ لله، ودموعُ الفـرحِ تفيضُ من أعينهم، فرحاً بما حققوا من نجــاحٍ، **واستولى كولومبوسُ على تلكَ الجزيرةِ باســـم ملكِ اسبانيا وملكتها، وسماها جزيـــرةَ (ســان**

سالفادور) وكانتْ جزيرةً كبيرةً مستويةً، نمــــتْ فيها أشجارَ الغاباتِ على حافـــةِ خليــجِ أزرقَ، وغَطتِ الأزْهارُ المُلوَّنـــةُ أرضَــها، وأســرعتْ **جُموعٌ من سُكّان الجزيرةِ إلى استقبالِ الرجـــالِ البيضِ القـــادمينَ**، دونَ أن يظــهرَ عليــهم أيُّ علامةٍ مِنْ علاماتِ الخوف، وكان أولئك السكانُ من الهنودِ، وكان لوْنُ بشرتهم غريباً، إذْ لم يكــنْ بالأبيضِ ولا بالأسودِ، وكانتْ وجوههم مبرقشــةً بأصباغٍ عجيبةٍ، وكانوا يحملون بأيديهم رماحـــاً من القصبِ، قصيرةً وفي رؤوسها أسنانُ كلـــبِ البحرِ (سمكِ القُرشِ) ولكنَّــهم كـــانوا يُرســلون نظراتٍ وديعةً إلى القادمينَ، وكتب كولومبـــوسُ في مذكراتهِ يصفُ لقاءه الأولَ بهم:

"أعطيْتُ بعضهم قبعاتٍ ملونةً، وعقوداً من الخرز وضعوها في أعناقهم، وابتهجوا بهذهِ الهدايا" وكانَ الرجالُ مِنْهُم يُمْسكونَ بأيديهم لَفافاتٍ صَغيرةً من أوْراقِ الشَّجَر، بُنِّيّةَ اللونِ، وقدْ أشْعلوا فيها النيرانَ، ثم وضعوها في أفواههم وملأوا بدُخانها رئاتهم، ثمَّ نفخوه في الهواء! وكانت تلكَ **أولُ مرةٍ يَعْرف فيها الرجلُ الأبيضُ (سجايرَ التبِّغِ)** وكانَ بعضُ أولئك السكانِ يلبسونَ بعضَ الحُليِّ الذهبيةِ الصغيرةِ، فسَألهم كولومبوسُ عن مصدرها، فأشاروا إلى الجنوبِ، وقالوا: إنها جاءت إليهم من جزيرةٍ كبيرةٍ أسمها **(كوبا)**، وكتبَ كولومبوسُ في مذكراته:

" كانَ أولُ شيء أثارَ اهتمامي هو البحـــثَ عنِ الذهبِ، وقَدْ شاهدتُ عَـــدداً مِــنَ الرجــالِ يضَعون قطعاً ذهبيــةً صغـيرة فــي أنوفــهم، وأفهموني بالإيماء أننا إذا ذهبنا نحــو الجنــوبِ وصلنا إلى جزيرة الملك الذي يملـــكُ الأوانــيَ الذهبيةَ!".

وهكذا كان علـــى كولومبــوس أن **يغـادرَ الجزيرةَ نحو الجنوب الغربيِّ** فأقلع منـــها فـــي الرابعَ عشرَ من تشرين الأولِ، وحملَ معه سبعةَ أشخاصٍ من سُكان الجزيرةِ، وفي نيتهِ أنْ ينقلهم إلى اسبانية، ليكونوا شاهداً حياً على نجاحِ مهمتهِ العظيمةِ، واتجهتِ السُّفنُ نحو الجنوبِ الغربــيِّ،

وظلّتْ خلالَ شهرينِ تُبحرُ مــن جزيــرةٍ إلــى أُخْرى، وكُلَّما نزلَ كولومبوسُ في واحدةٍ منــها ضمَّها إلى أملاكِ إسبانية، بعد أن أطلقَ عليــها اسْماً، وفي الثامن والعشرين من تشــرين الأولِ رستِ السُّفُنُ على سواحل **كوبا**، وراحتْ رُسُــلُ كولومبوسَ تبحثُ عبثاً عن ملكِ هذه الجزيــرةِ، ولمّا لم تَهْتدِ إلى أحدٍ عادتْ إلى مرسلها لــتروي له ما لقيته في إحدى القُرى، على بعــدِ خمســةَ عشر كيلومتراً، إذ هُرعَ سُــكانها إليــهم، وهــم مندهِشُونَ، وراحوا يتلمَّســونهم بأيديــهم، وهــم يعتقدونَ أنهم هبطوا من السماء!

وفهم كولومبوسُ من سُكانِ جزيرةِ كوبــا أنَّ الذهبَ يلتقطُ في جزيرةٍ أخرى، فأمرَ بــالرحيلِ

باتِّجاهها، فتحركـــتْ (ســـانتا ماريـــا) نحوهـــا، وتأخَّرتِ السفينتان الأخريانِ عن اللَّحـــاقِ بـــها، وكانَ قائداها الأخوان بنزون يتظاهرانِ بصعوبةِ الملاحةِ، في حينَ أنهما كانا يبحثان عن المعـــادنِ الثمينةِ ليضيفاها إلى ثروتهما الشَّخصيةِ، وهذا ما عرفهُ كولومبوسُ وعدَّهُ خيانةً له، وهنـــا نعُـــودُ للتذكيرِ بما كنا قدَّمناهُ عن شخصية مارتن بنزون وطمعهِ وحدَّةِ طباعهِ.

وانطلقتْ (سانتا ماريا) حتى وصلـــتْ إلـــى جزيرةِ (هايتي) ثم تابعتْ طريقها من جزيرةٍ إلى أخرى حتى بلغتْ جزيرة ســـماها كولومبـــوس **(سانْ دومنجو)** وهنـــاكَ لقـــي ملـــك الجزيـــرةِ

المُسمى (غاكانا غاري)، الذي قدَّمَ إليه هديةً (زُنَّارٌ يحتوي على قناعٍ بأذنينِ مصنوعتينِ من صفائحِ الذَّهب) كما حمل إليه أتباعه هداياهمُ من القطعِ الذهبيةِ الصغيرةِ!

وخلالَ الليلِ **جنحتِ السفينةُ (سانتا ماريا) إلى البرِّ**، بسبب إهمال البحارِ المسؤول عن الدَفَّةِ، **فتحطَّمَتْ على الصخورِ** المرجانيةِ وأصبحت حطاماً كاملاً، وأسرعَ الهنودُ إلى مساعدةِ البحارةِ لإخلاء السفينةِ الغارقةِ، بشهامةٍ نادرةٍ، وكتبَ كولومبوس في مذكراته بعد انتقالهِ إلى السفينة (نينا).

" كانَ الملكُ غاكانا غاري وأتباعُه يبكــــونَ على السَّفينةِ! قلوبهم ملأى بالمحبـــةِ.. فبعــدَ أنْ قدَّموا كلَّ المُساعدةِ لتفريغ السفينةِ أحضروا إلينا الخُبزَ والطرائدَ.. وتناولوا معنا الطَّعامَ، وعنــــدَ الانتهاء منهُ نظفوا أيديهم بالأعشابِ!"

كانَ **حُزنُ كولومبوسَ على غرق الســـفينةِ عظيماً**، وعدَّ غرَقها كارثــــةً، ولكنـــه اعتصـــم بالإيمانِ والتجلدِ، وقرَّر أنْ يبني هناكَ **قلعةً على الشاطىء يتركُ فيها أربعينَ من رجالِ الســـفينةِ الغريقةِ**، وقد كانَ هؤلاء الرجالُ يرغبـــونَ فـــي الإقامةِ هناكَ أملاً باكتشافِ منجمِ الذهبِ، **وركـبَ بحارةُ سانتا ماريا الآخرون سفينةَ نينـــا التـــي**

كانت لحسنِ الحظ قريبةً منهم، وأقلعتِ السـفينةُ عائدة نحو الشرقِ، وعلـى ظـهرها الأمـيرالُ كُولومبوسُ والهنودُ السبعةُ من (سانْ سـالفادور) وبيْنَما كانتْ تمخرُ عُبابَ البحرِ ظهرتِ "**البنْتـا**" التي يَقودها مارتن بنزن، وأسْرَع القائدُ بِتقديـم اعْتذارهِ إلى الأميرالِ عَنْ تأخرهِ في اللَّحاقِ بـه، وتَظاهرَ كولومبوسُ بالقبولِ، وكتبَ في مذكراته:

"كانتْ أعذارُ مارتن بنزون كاذبةً، فعِنْدمـا افتَرَق عَنِّي كانَ هَدَفـهُ الطَّمـعُ، فقـد أرادَ أنْ يسبقني إلى جزيرةِ الذَّهبِ ليحملهُ إلى سـفينته، ومع ذلك كتمتُ غيظـي لكيـلا أتـركَ مجـالاً لِلخصام" **وهكذا اتجهتِ السفينتان عائدتين إلـى**

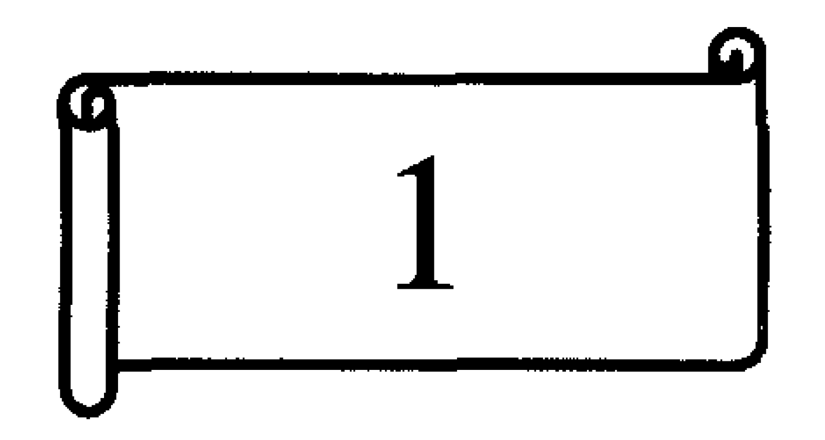
إسبانية! وبعد ثلاثةِ أسابيعَ من الملاحةِ الهادئـــةِ مرَّتْ بعضُ الليالي العاصفـــــةِ، وفرَّقَــتْ بيــن السفينتينِ الأختينِ، ولم تصلْ (نينا) التي تحمــلُ كولومبوس إلى **ميناء بالوس إلا ظـــهرَ اليــومِ الرابعِ من آذار عام 1493** م، فـــازدحمَ الميـنـــاء بالناسِ لاستقبالِ المكتشفِ العائدِ مع رجالهِ، ولــم يكونوا يتوقَّعون أنْ يروهُ أو يــــروا ســفنهُ فـــي مينائهم ثانيةً! وقد وصلتْ ســـــفينةُ كولومبـــوس (النينا) ظهراً ووصلتِ (البنْتا) بعدها في اليــــومِ نفسه، ووسط مظاهرِ التكريمِ والترحيبِ بـــالبطلِ العائدِ **غادرَ كولومبوس نحو قُرْطبـــــةَ**، ليعـــانقَ زوجته بياتريس وولديهِ اللذين تركهما هناكَ، ثــم تابعَ طريقه إلى برشلونة مع فرســـــانِ الحــرسِ

الملكيِّ الذين جاءوا لمرافقتهِ، تكريماً وتمجيـــداً وتشريفاً للأميرالِ العائدِ، وفي ركابهِ كانَ الـهنودُ السـبعة يحملـون الببغـاواتِ، وهكـذا **دخـل كولومبوس برشلُونةَ دُخولَ الأبطالِ الظـافرينَ**، وقَد أصبْحَ بَطلَ السّـاعةِ فـي إسـبانية كُلـها، واستُقبلَ في البَلاطِ المَلكـيِّ اسـتقبالاً حـافلاً، وأجلسَ إلى يمينِ الملكِ، وعيـنَ أمـيرالاً فـي الأسطولِ الإسباني، وقد **أصبحَ يحمل لقبَ نـائبِ الملكِ وحاكمِ الأراضي الجديـدةِ وراء البحـارِ**، وأصبحتْ أسرتهُ كلها من النبلاء، وهكـذا بلـغَ المكتشفُ العظيمُ أوجَ مجدهِ، بالإقرار له بجميـعِ الامتيازاتِ التي منحتْ له ولأسرتهِ بعد أنْ حقـقَ حلمه الكبيرَ.

الباب الخامس

الرحلة الثانية

1493 ــ 1496 م



قضى كولومبوسُ ستةَ أشهرٍ في أسبانية، وهو في ذروةِ مجده وتكريمهِ، ينتقلُ بين قرطبةَ وبرشلونةَ، وقد حثَّ المسؤولينَ على **إرسالِ الجالياتِ مِنَ المُهاجرينَ لاستيطانِ المُسْتعْمَراتِ في الأراضي الجديدةِ**، والعمل على زراعتها، وكان على الإسبانِ أنْ يتعجَّلوا في ذلك قبلَ أن

تسرعٍ البرتغالُ إلى منافستهم وتفلحَ في الاستيلاء على تلكَ الجُزُرِ قبلهم.

والحقُّ أنَّ العرشَ الإسباني لم يضعِ الوقتَ، وقد حصلَ أولَ الأمرِ على تأييد البابا لامتلاكِ تلكَ الجُزُرِ، وهو الذي لقَّبَ الزوجين الملكين بالملكينِ الكاثوليكيين، وقد أنجزتِ **الاستعداداتُ لرحلةِ كولومبوسَ الثانيةِ** خلالَ عدةِ أسابيعٍ، وأهتمَّ الملكانِ بإنجازها، فعينَ أحدُ موظفي البلاطِ من الإداريين البارعينَ للإشرافِ على تجهيز الرِّحلةِ بما يلزمُها، وعينَ مئاتُ الرجالِ الذين سيسافرون إلى العالمِ الجديدِ مع خيلهم، للإقامةِ هناك، وفي رفقتهم أعدادٌ من البنائينَ

وعمالِ المناجمِ والمزارعينَ، ومع هــؤلاء بــذورُ الحنطةِ وغِراسُ الكرمةِ والحيواناتُ الضروريـــةُ للاستيطانِ والزراعةِ، مـــع المؤونـــةِ اللازمـــةِ، وانطلقتْ حركةٌ لا تهدأ، لبناء سفنٍ جديدةٍ، كبــيرةٍ وقويةٍ وقادرةٍ على حملِ أعدادِ كبيرةٍ من البحـــارةِ والمهاجرينَ والمؤونةِ الكافيةِ لفترةٍ طويلةٍ!

وقد تزاحمَ الناسُ هذه المرةَ على الانضمامِ إلى الرحلةِ، طمعاً فـــي الـــثَّرواتِ والمعـــادنِ الثمينةِ التي تنتظرُ المهاجرينَ إلى العالمِ الجديدِ، وقد أصبح ذلك كله حقيقةً مضمونةً، ولـــم تعــدِ الرحلةُ إلى ذلك العالم مغامرة بحريةً تضربُ في ظلماتِ البحارِ وراء هدف غامضٍ مجهولٍ!

كانَ **هدفُ هذهِ الرحلـةِ الثانيـةِ واضحـاً:** **استعمارُ تلكَ الجزرِ الجديدةِ وإرشـادُ سـكانها الأصليينَ (الهنودِ) إلى الإيمـان بـالله**، ولـهذا شددتِ التوصيةُ بالعنايةِ بأولئك السكانِ، وطلـبَ من المهاجرينَ المسافرينَ أنْ يحسنوا معاملتـهم، ويترفقوا بهم، ليقبلوا على اعتناقِ الدِّينِ الجديـدِ، ويتمَّ استيطانُ المهاجرينَ في تلكَ الجـزُر دونَ مشقات أو عوائقَ.

أما **أسطولُ الرحلةِ** فقد تـألفَ مـن **سـبعَ عشرةَ سفينـةً:** ثلاث منها كبيرة ضخمةُ، وأربعَ عشرةَ سفينةً صغـيرة، وكـانَ عـددُ الرجـال المسافرينَ عليها حوالي **ألف ومائتيْ رجلٍ**، بينهم

عددٌ من رفاقٍ كولومبوسَ في رحلتــــهِ الأولـــى، وانضمَّ إليهم (**بارتلميه**) شقيقُ الأمـــــيرالِ، مـــع بعضِ أصدقائهِ، وقيلَ إنَّ جمْلةَ الركابِ والبحارةِ في رحلةِ كولومبوس الثانيةِ كانت لا تقــلُّ عـــن **ألف وخمسمائةِ رجلٍ**، ومعهم كثيرٌ مــن الأدوات اللازمة لاستعمارِ العالمِ الجديدِ واستيطانهِ.

2

وفي اليَوْمِ الخامِسِ والعِشْرينَ من أيلول عامَ 1493 م أقلعــتِ السُّــفنُ بقيــادةِ كولومبـــوس، أمير البَحرِ المُحيط والقائدِ العامِّ لهذا الأسْــطولِ، من ميناء قـــادسَ، جنوبـــيَّ إســبانية، **وبــدأتْ إسبانية بذلك زحفها في طريق التوسُّعِ**، لتصبـح **أكــبرَ دولــةٍ اســتعماريةٍ أوربيــةٍ**، وتنشـــئ إمبراطورية تمتدُّ إلى ابعدَ من أفريقيـــة، لتضـمَّ ذلك العالمَ المكتشفَ الجديدَ، وكان كولومبـــوس هو الرجلَ الذي مهدَ لـــها الســبيلَ لبنـــاء تلــكَ الإمبراطورية.

وصلتِ السُفنُ إلى جزرِ (**الكناري**) ـ كما تمَّ في الرحلةِ الأولى ـ ثمَّ أبحرتْ بعد توقف يسيرٍ فيها باتجاه الجنوبِ، وبعدَ شهرٍ من الملاحةِ المتوصلةِ وصلَ الأسطولُ إلى بحرِ (**كرايب**) وهبطَ الركابُ في أولى الجُزُرِ، فأطلقَ كولومبوس عليها اسم (**دومينيكَ**) وهو اسمُ والده الحائكِ الجنويِّ الفقيرِ الذي لم يحلمْ يوماً بأنْ يعرفَ اسمه مثلَ هذا التكريمِ والخُلودِ.

لاحظَ كولومبوسُ ومرافقوه بدهشةٍ وخوف وحشيةَ سكانِ تلك الجُزُرِ، في حينَ أنَّ الرحلةَ الأولى كلها حفلتْ بذكرياتِ حلوةٍ عن وداعةِ السكانِ الهنودِ ومسالمتهم وحسنِ استقبالهم المسافرينَ الوافدينَ عليهم!

وبعد شهرين من بداية الرحلةِ الثانيةِ وصلَ كولومبوس بسفنه إلى جزيرة (**هايتي**)، فأسرع الأميرالُ إلى القلعةِ التي شادها على شاطئ (**سانْ دومنجو**) وخلف فيها أربعينَ من بحارةِ (سانتا مارتا) التي غرقتْ في الرحلةِ الأولى، ليتابعوا البحثَ عن منجمِ الذَّهبِ، وكمْ كانتْ دهشةُ كولومبوسَ عظيمةً حينَ **وجدَ القلعةَ محْرُوقةً، ولم يعثرْ فيها على أثرٍ لأولئك البحارةِ**، فحزنَ بالغَ الحزنِ، وعلمَ من بعضِ السكانِ الهنودِ أن أولئك الرجالَ ذهبوا يبحثون عن الذَّهبِ في مناطقِ بعيدةٍ وهلكوا!!!

لم يكنْ أمام كولومبوسَ أنْ يلتفتَ إلى الوراء، ويطيلَ الأسى على ما فاتَ، وقرَّرَ أنْ

يبدأ فوراً **بإقامةِ مستعمرةٍ جديدةٍ في جزيرةِ (هايتي)**، واجتمعَ رجالُ السُّفنِ جميعاً للاحتفالِ بتشييدِ مدينةِ (ايزابيلا) **أولى المدنِ في العالمِ الجديدِ**، وانكبَّ المكتشفُ العظيمُ والملاَّحُ الماهرُ على تأسيسِ تلكَ المدينةِ والقيامِ بإدارتها وتنظيمِ شؤونها، والأخذِ بأيدي أولئك المهاجرينَ القادمينَ الحالمينَ بالثرواتِ والذَّهبِ، ليدركوا أن **تحقيق الأحلامِ لا تتمُّ إلا ببذلِ الجهودِ والعرقِ والسهرِ والجدِّ المتواصلِ، وقد بدأت المشكلات تواجهُ أولئكَ الحالمينَ** المتعجلينَ للحصولِ على الثرواتِ: وأولى تلكَ المشكلاتِ تتمثلُ في **اختلافِ المُناخِ** الذي لم يعهدِ المهاجرونَ مثلهُ في

إسبانية، فأصابهم المرض حتى **أنهكَ مناخُ هايتي قواهم**، ثم بدأوا يستردون عافيتهم شيئاً فشيئاً، وقد ظلوا دوماً بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الأدوية والمؤنِ، ولهذا أرسلَ كولومبوس اثنتي عشرةَ سفينةً من الأسطولِ إلى إسبانيا في طلبِ المؤنِ والأدويةِ، وكانَ يوصي المهاجرينَ دائماً بأنْ يحسنوا معاملةَ الهنودِ، ويشدِّدُ على الجنودِ أن يراعوا ذلك في احتكاكهم بالسكَّانِ الأصليينَ، ليظلوا مسالمينَ موادعينَ، فالسَّلامُ هو الشرطُ الذي يتمكنُ المهاجرونَ في ظلالهِ من استغلالِ الأرضِ وزراعتها والحصولِ على الثرواتِ الموجودةِ فيها.

واصطحبَ كولومبوس ستِّينَ رجُـــــلاً فـــي ثَلاثِ سُفنٍ، لاكتِشافِ الجزرِ القريبـــةِ الأخــرى حتى وصل إلى جزيرةِ **(جامايكــا)** التـــي كــانَ سكانها الأصليون مـــن المحـــاربينَ الأشـــداء، يستخدمون القسيَّ والسهامَ في حروبهم، ثم عادتِ السفنُ الثلاثُ إلى سواحلِ جزيرة (كوبا)، وكـــان الوقتُ صيفاً، ولكنَّ العواصفَ والرُّعودَ كانتْ لا تكفُّ عن الزمجرةِ ومـــرضَ كولومبـــوسُ مـــن الإعياء والإنهاكِ، فارتدَّ إلى مستعمرةِ (ايزابـــلا) فوجدَ المستوطنينَ فيها يعانونَ أشدَّ الضيقِ مـــن **نقصِ الأدويةِ والملابسِ والموادِّ الغذائية**، وقـــد ساءهُ أن ينشبَ **النزاعُ بينـــهم وبيـــن الـــهنودِ**،

فانصرفَ إلى إعادةِ الهدوء والنظامِ في المستعمرةِ، واستخدامِ الهنودِ في الأعمالِ الزراعيةِ وتعليمهم اللغةَ الإسبانيةَ لتوطيدِ دعائمِ التفاهمِ بين الفريقينِ، وتسهيلِ اعتناقهم للمسيحيةِ!

غيرَ أنَّ المشكلاتِ ازدادت حدة بعد اكتشافِ أولِ منجمٍ للذهبِ عام 1495 م، إذْ كلفَ كولومبوسُ أخاه بارتلْميه بالإشرافِ على استخراجِ الذهب منه، فنشطتِ الدسائس من قبلِ الحسَّادِ، وراحوا يرسلون الوشايةَ تلو الأخرى إلى اسبانيةَ، افتراء على كولومبوسَ، وكيداً له، فلما عادتْ مراكبُ التموينِ من اسبانيةَ كانَ على

متنها **مبعوث ملكيٌّ مكلف بالتحقيق فـــي تلـــك الوشاياتِ!**

وغضب كولومبوسَ أشدَّ الغضبِ، واعتـــبرَ **إيفادَ المحقق إهانـةً بالغةً له**، ففوَّضَ الأمور إلى أخيهِ (بارتلميه) وعادَ إلى **إسبانية عـــام 1496 م ليواجهَ زمرة من الخصومِ الحاسدينَ** له الذيـــن كانوا في البلاطِ الإسبانيِّ الملكيِّ، يفترونَ عليـــه، ويوغرون الصدورَ عليه.

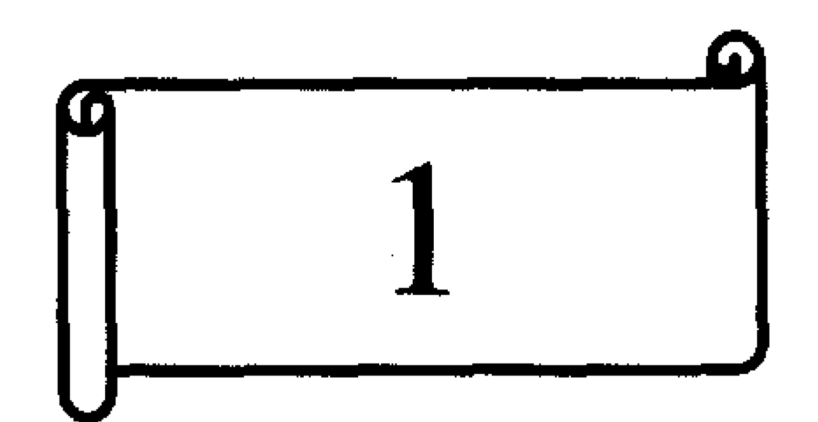
كانتْ رحلةُ العودةِ هذه المرةَ إلى إســـبانية كئيبةً حزينةَ مضنيةً، فقد أصيبَ الرجلُ العظيـــمُ بجرحٍ في أعماقِ نفسه، **وجُوزي على إخلاصـــه للعرشِ الإسبانيِّ بالنِّكرانِ**، وقوبـــلَ وفـــاؤهُ لـــهُ

بالظلمِ والإساءةِ، ومن أينَ لهُ أنْ يعرفَ حينـــذاك أنَّ ما أصابه منْ أذى لم يكنْ غيرَ مقدمةٍ لمأســاةِ النكرانِ التي ستتعدَّدُ فصولها في السنينَ القادمـــةِ من حياتهِ؟

الباب السادس

الرحلة الثالثة

1498 ـــ 1502 م



وصلَ كولومبوسُ إلى ميناء (قـــادسَ) فـــي الحادي عشر من حزيران 1496 م بعـــد رحلـــةٍ بحريةٍ مضنيةٍ استمرَّتْ ثلاثةَ أشهرٍ، وســـيمضي سنتينِ في إسبانية هذه المرةَ قبلَ أنْ يغادرها فـــي رحلتهِ الثالثةِ إلى العالمِ الجديدِ. رجـــعَ الرجـــلُ العظيمُ إلى أسرته وولديهِ، وكـــانَ ولـــداه بعـــدَ

اكتسابهما امتيازاتِ النِّبالةِ يعملانِ في البــــلاطِ الملكيِّ، في خدمةِ وريثِ العرشِ، ولـــم تتـــأخرْ **مُقابلةُ الملكينِ للأميرالِ العائد،** فقـــد اســـتقبلاهُ بالترحيب، وأصغيا إلى دفاعهِ عنْ نفســـهِ، **وقــد استطاعَ الرجـــلُ الشـــريفُ أنْ يقنــعَ الملكيـــنِ باستقامتهِ** ونجاحِ عملهِ، وتبين للملكينِ أنَّ ما بلغَ البلاطَ الملكيَّ من أخبارٍ ضدَّهُ لم تكـــــنْ غـــيرَ مفترياتٍ حاكها بعضُ الحاسدينَ الجشعينَ الذيـــنَ منعهم كولومبوسُ مـــن أنْ يســـتأثروا لأنفســـهم بأموالٍ هي من حقِّ خزينة العـــرشِ الإســـبانيِّ! وابتهجَ كولومبوسُ عندما **جددَّ الملِكان ثقتِـــهِما الكاملةَ بهِ،** وطمأناهُ على جميعِ حقوقهِ وامتيازاتهِ التي اكتسبها بجدِّهِ وصبرهِ ونجاحهِ في اكتشافاتهِ

الخطيرةِ، وكفايتهِ في القيامِ بمهمته! وقد انتـــهزَ كولومبوسُ الفُرصةَ المواتيـــةَ فـــأثبتَ الحقـــوق الوراثيةَ في الألقابِ والمكاسبِ الماليةِ التي تعـودُ عليه من المستعمراتِ الإسبانيةِ لأسرته: فمنـــحَ ابنه البكْرَ حصَّتَهُ من ثمنِ تلكَ المكاسبِ، علـــى أنْ يرثهُ أخوه الأصغرُ في حال وفاتهِ، ثمَّ عمـــهُ بارتلميه، وبذلكَ ضمـــنَ كولومبـــوسُ مســـتقبلَ أسرتهِ، ثمَّ انصرفَ إلى تهيئةِ نفسهِ **للقيامِ برحلتهِ الاكتشافيةِ الثالثةِ**، فطالبَ بتجهيز ثماني ســـفنٍ للاستعمارِ وستِّ ســـفنِ لمواصلـــةِ الاكتشـــافِ، وعلى الرغم من أنَّ خزينةَ إسبانية لم تكنْ فـــي ذلك الحينِ قادرةً على تلبيةِ مطالبهِ، فقد اهتمـــتِ الملكةُ ايزابلا نفسها بالأمرْ، وجهزتْ لـــه ســـتَّ

سفنٍ، واقترضَ كولومبوس أموالاً مـــن بعــضِ المصارفِ مـــن مواطنيـــه الإيطـــاليينَ، وأقلـــعَ بأسطولهِ مبحراً في الثلاثينَ من أيار عـــامَ 1498 م باتجاه افريقيةَ، وعندما وصـــــل إلـــى جـــزرِ **(الكناري)** طلبَ من ثلاثة سفن أن تبحِرَ مباشـــرة نحو المستعمرةِ الإسبانيةِ، وقادَ هو السُّفُنَ الثلاثَ الأخرى نحو الرأسِ الأخضـــرِ، إذْ كـــان يُريـــدُ **التأكدَ من وجودِ قارةٍ باتجاه الشرقِ**، وبعد عناء شديدٍ، ومرضِ الأميرالِ من شدةِ الحـــرِّ والأرقِ دفعتِ الريحُ مراكبهَ نحوَ الغربِ، ودنـــــتْ مـــن جزيرةٍ قربْ ساحلٍ **(هو الآنَ ساحلُ فـــنزويلاّ)** ودارتِ المراكبُ حولَ تلكَ الجزيرةِ ثمَّ دخلـــتْ **خليجَ (باريا)** ليشاهدَ ركابها للمرةِ الأولى طـرفَ

البرِّ مـــن **قـــارَّةِ أمريكـــة الجنوبيـــةِ**، وظنَّـــها كولومبوسُ في البداية جزيرة، ولكنه عندمـا رأى الماء الغزيرَ الذي ينصبُّ من نـــهرِ **(اورينكـــو)** حكمَ أنَّ البلادَ قارَّةٌ كبيرةٌ، وأصابتهُ الدَّهشةُ عنــدَ رؤيته بعض سكانها، فهم لم يكونوا سودَ البشــرةِ كما توقعَ، بلْ كانوا أقلَّ سواداً وأجمـــلَ قوامـــاً، وكان شعرهم طويلاً مسترسلاً غير متجَعِّدٍ!

لم يستطعْ كولومبوسُ أن يهبط إلـــى الـــبرِّ، للآلامِ التي كانَ يعانيها منْ مرضِ عينيهِ، وطافَ بسفينتهِ على طولِ الساحلِ الأخضرِ الجميلِ، ثـــم أمرَ بمتابعةِ الإبحارِ نحو المستعمرةِ الإســـبانيةِ، وكتبَ رسالةً إلى البلاطِ الملكـــيِّ فـــي اســـبانية .

يتحدَّثُ فيها عن اكتشافهِ **العظيمِ للقارَّة التي لـم يكتشفها أحدٌ قبلهُ.**

كان لهذهِ الرسالةِ أثرٌ خطيرٌ: فقد هبْ كثـيرٌ من الروّادِ بعدَ إذاعةِ مضمونها، لاقتفـاء أثـر كولومبوسَ، يحاولونَ الوصولَ إلـى منـاطقَ جديدةٍ، ليكسبوا منها الثُّروةَ والمجدَ، وكانَ بيـن أولئكَ الروادِ واحدٌ من الملاَّحين اسمه **(أمريكـو فيسبوتشي)** الذي سيصلُ إلى سواحلِ فـنزويلاّ بعد كولومبوسَ، **ويصبحُ اسمه (أمريكو) علَمـاً على (أمريكة) كلِّها** فيما بعْدُ!

2

عندما وصلَ كولومبوسُ إلى المستعمراتِ الإسبانيةِ في **(هايتي)** وجدَها في حالةٍ يُرْثى لَها من الاضْطِّرابِ والفَوضى: فقد **انقسمتِ الجاليةُ الإسبانية فيها إلى فريقينِ**، فريقٍ مع أخويْ كولومبوسَ: بارتلميةَ وديغو، وآخرَ ضدَّهما، وهذا الفريقُ الثاني المُتمرِّدُ لم يتأخرْ عن إثارةِ قبائلِ الهنودِ على الفريقِ الأوَّلِ، واشتعلتِ **الحربُ بين الفريقينِ**، وعمَّتِ الفوضى، ولكنَّ كولومبوسَ عندَ وصولهِ تمكنَ من القضاء على الثَّورةِ، وحسمَ الفتنةَ، وسمحَ للمتمردِّينَ بالعودةِ

إلى إسبانية، فعادتْ جماعةٌ من أشدِّ الثائرينَ عداوة لكولومبوسَ وأخويه، وراحتْ تملأ عليهِ الدُّنيا في إسبانية ضغائنَ وأحقاداً، وتتهمُه مع أخويهِ بإخفاء ثرواتِ البلادِ الجديدةِ للاستئثار بها، وتنقلُ عن أخويهِ سوء معاملتهما للجاليةِ الإسبانيةِ والهنودِ على السواء، وتصفهما بأنهما غيرُ جديرينِ بتمثيلِ العرشِ الإسبانيِّ في العالمِ الجديدِ!

وتَناقلتْ حاشِيةُ البلاطِ الملكيِّ هذهِ الاتِّهاماتِ، وكانَ في الحاشيةِ بعضُ خصومِ كولومبوسُ الحاسدينَ، وعندما أسرَ رجالُ كولومبوس كثيرين من السُّكانِ الهنودِ، في

الحربِ الدائرةِ هناكَ، وبعثوا خمسَ سفن إلى إسبانية مشحونةٍ بالأسرى عبيداً، غضبتِ الملكةُ ايزابلا من ذلكَ وقالتْ: منْ أباحَ لهم أنْ يأسروا هؤلاء المساكينَ! وأمرتْ أنْ ينادى في اشبيليةَ وغرناطةَ وبقيةِ المدنِ الإسبانيةِ الكبيرةِ بعتقِ كلِّ العبيدِ الذين أتي بهم من جزائرِ الهندِ الغربيةِ أخيراً، فملأ الغيظُ قلوبَ الناسِ الذين أصابتهم الخسارةُ بهذا العتقِ، والتقتْ جموعهم للتظاهرِ متظلمينَ من كولومبوسَ وأخويهِ، واجتمعوا في ساحةِ الحمراء وعلا صياحهم، وأصغتِ الملكةُ إلى شكواهم واستيائهم، وصدرَ **الأمرُ بتعيينِ حاكمٍ جديدٍ للمستعمراتِ الجديدةِ وراء البحارِ،**

واسمه (**بوبادلا**) وهو واحدٌ من رجالِ الحـــرسِ الملكيِّ، الذينَ يكرهونَ كولومبوسَ ويحســـــدونه على المكانةِ التي نالها في البلاطِ الملكيِّ، وفـــي قلوبِ الناسِ، **وكُلفَّ الحــــاكمُ الجديـــدُ لـــهايتي، بـــالتحقيق فـــي الشـــكاوى والاتـــهاماتِ ضـــدَّ كولومبوسَ وأخويهِ.**

وفي الثالثِ والعشرينَ من آب عامَ 1500 م وصل بوبادلا الحاقِدُ إلى هايتي، واستولى علــــى قصرِ الأميرالِ **وقبضَ عليهِ وســـجنَ أخويـــه، وأمر بوضعِ الأغلالِ فـــي أقدامـــهم**، وســـجلتِ الاتهاماتُ التي احتشـــدَ لـــها خصـــومُ أســـرةِ كولومبوسَ وأعداؤه، وخلاصتها أنهم مرتشـــون

ظالمون عتاة، وألقي بالإخوة الثلاثةِ في سـفينةٍ، وهم مُكبَّلونَ في قيودهم، لتنقلهم إلـى إسـبانيةَ، **وصبرَ الرجلُ العظيمُ علـى المِحْنـةِ** واستسـلمَ لمصيره، فقد أدْركَ وهو في عمقِ مأساته الكبيرةِ أنَّهُ **إنسان فاضلٌ، يعيشُ في عصرٍ وحشيٍّ**، وأنَ حساده الكثيرينَ من الإسبان لم ينسوا أنه أجنبـيٌّ عنهم، وأنه بلغَ بنجاحهِ حداً من المجدِ والسلطانِ يدفعُ التافهينَ إلى الكيدِ لهُ حسداً وحقداً، وكذبـاً وافتراء، وعندما حاول ربانُ السفينةِ العائدةِ بـهِ وبأخويهِ إلى إسبانيةَ ــ وكان رجلاً شهماً طيبـاً ــ أن يفُكَّ قُيودَ كولومبوسَ رفـض الأميرالُ السجينُ بإباء أنْ يقبلَ بذلكَ، وأصَـرَّ علـى أنْ

يظلَّ مكبَّلاً بها، حتى يفكَّها الملكان بأيديهما عنـدَ إعلانِ براءتهِ من كلِّ التُّهمِ الكاذبةِ التـــي لفقـتْ ضدَّه، ثم يحتفظ بقيوده تذْكاراً للجزاء الذي نالـه على طويلِ إخلاصهِ وتضحياتهِ ووفائهِ للعــرش الإسباني! وكتبَ كولومبوسُ رسالةً طويلةً فــي الدفاعِ عن نفسهِ عبَّر فيها عن آلامِ نفسه الكبـيرةِ لما أصابهَ من ظلمٍ وإذلالٍ، وختمها بقولهِ:

"لوْ أنني أخذْتُ جُزُرَ الهندِ وسـلمتها إلـى الأعداء، لما لقيتُ مثلَ هذا العقاب!".

واطَّلعتِ الملكةُ علـى حـالِ كولومبـوسَ وأخويهِ بعدَ شهرٍ ونصفٍ مـن عودتـهم إلـى إسبانية، فرقَّ قلبها لما أصابهم من ظلمٍ ومهانـةٍ،

وأدركتْ أنَّ الرجلَ العظيمَ بذلَ حياتهُ وجـــهوده في خدمةِ التاجِ، بإخلاصِ واستقامةٍ، وأنَّ عليـــها أن تحميهُ من أذى خصومه وحســـاده الكثـــيرينَ، فأمرتْ بإطلاقهِ من قيودهِ، **واستقبلته مع زوجـــها في البلاطِ بإكرامٍ وإجلالٍ**، تعْويضاً عمّا أصابــــهُ، ويقالُ إنها بكتْ عندمــــا قــصَّ عليــها مأســاته، والجزاء الذي لقيهُ بعدَ عمرٍ من الإخلاصِ والوفاء وخدمةِ العرشِ الإسباني والدينِ المســيحيِّ! وقــد استطاعَ هذا الاستقبالُ الوديُّ أن يستلَّ من قلــبِ الرجلِ العظيمِ أحزانهُ، ووعدهُ الملكــانِ بإعــادة امتيازاتهِ كاملةً، وأنْ تأخذَ العدالةُ مجراها، **ثُـــمَّ صدرَ أمرهما بأنْ يتاحَ للأميرال كولومبــوسَ أن**

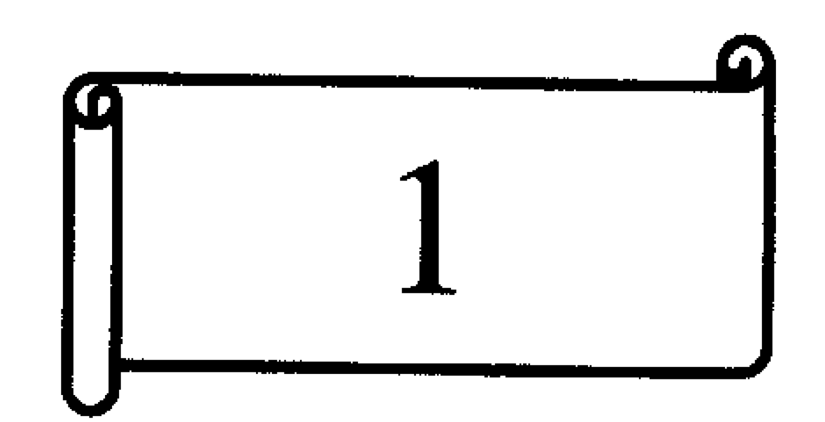
يواصلَ سلسلةَ اكتشافاتهِ في رحلةٍ رابعةٍ، بعيداً عن جزيرةِ هايتي والمستعمراتِ التي أنشأها فيها، **كما صدر أمرُ الملكين بعزلِ بوبادلا من** ولايته عليها، وعينَ حاكمٌ آخرُ جديدٌ لها، ترضيةً لكولومبوسَ وتكريماً له.

وقبلَ أن يبحرَ كولومبوسَ في رحلته الرابعةِ، فوَّض ابنه الأكبرَ ديغو بقبض وارداتِ أبيهِ المخصصةِ له من المناطق المكتشفةِ وأوصاهُ أن ينفقَ عشرها على الفقراء والمحتاجين، وأن يدفعَ عشراً آخرَ إلى خزينةِ جنوى، وطنِ كولومبوس ومسقطِ رأسهِ، وأن يعطي لزوجةِ أبيهِ بياتريسَ مبلغاً سنوياً كبيراً وأن يعنى بها كأنها أمهُ، ويواليَ البرَّ بها طوالَ حياتها.

الباب السابع

الرحلةُ الرابعةُ والأخيرةُ

1502 — 1504 م



غادر كولومبوسُ ميناء قاديسَ ومعه مائــــةٌ وخَمْسونَ بَحاراً على متنِ أربعِ سفنٍ، **وأُمِـــرَ ألا ينزلَ في جزيرة هايتي، خشيةَ أنْ ينشبَ نـــزاعٌ بينه وبينَ الحاكمِ الجديدِ الذي عُيِّـــنَ لإدارتـــها،** وكانَ إقلاعُ السُّفنِ في التاسعِ مـــن أيـــار عـــامَ 1502م، وعندما وصلتْ إلى قربِ (هايتي) بعــدَ

اكتشاف جزيرة المارتينيك ثـــارتِ العواصِــفُ البَحْرِيَّةُ الشديدةُ التي كان كولومبوس قــد تنبــأ بهبوبها، وطلبَ من الحاكمِ الجديـــدِ أنْ يســمحَ لسفنهِ بالالتجاء إلى السَّاحلِ، فرفـــضَ الحــاكمُ طلبهُ، وكانتْ سفنٌ كثيرة عنـــدَ مصـــبٍّ نـــهر **(أوزاما)** على أهبةِ السَّفرِ إلى إسبانيةَ، فــاضطرَّ كولومبوسُ إلى الالتجاء إلى مصبِّ نهرِ **(جايما)** القريبِ لحمايةِ أسطولهِ من العاصفةِ، وفي اليــوم التالي أقلعتِ السفنُ الذاهبةُ إلى إسبانية فدمـــرتِ العاصفة أكثرها وكانتْ واحدة من السُّفنِ الغريقةِ تحملُ على متنها (بوبادلا) الحاكمَ السابقَ الـــذي عانى كولومبوسُ من حقدهِ عليهِ ما رأيناه مـــن

قبلُ، كما كانَ على متنها أحمالٌ من الذَّهبِ وسائرِ المعادنِ الثمينةِ الأخرى، ونجا أسطولُ كولومبوسَ بفضلِ يقظتهِ، وبعد أهوال يطولُ وصفها وصلَ بسفنهِ إلى **البرزخ الموصلِ بينَ أمريكةَ الشماليةِ وأمريكةَ الجنوبيةِ**، فوقَ بحرٍ هائجٍ مزبدٍ، وأمطارٍ كالطُّوفانِ، ورعودٍ وبروقٍ قاصفةٍ، وظلَّتِ السفنُ طوالَ عدةِ أشهرٍ تواصلُ إبحارها بمحاذاةِ سواحلِ **(نيكاراغوا)** و**(كوستاريكا)** حتى بلغت **(باناما)**، وعندَ أضيقِ نقطةٍ في برزخ باناما، حيثُ لا يفصلُ بين المحيطين الأطلسيِّ والهادي أكثرُ من خمسةٍ وثلاثينَ ميلاً قضى كولومبوسُ أسبوعَ رأسِ

السنةِ الجديدةِ (1502 م) واحتفلَ الركابُ بعيدِ الميلادِ، وعندما وصلتِ السفنُ إلى ساحل **(جامايكا)** ـ بعد عودتهِ عن طريقِ **(كوبا)** وتزوده بالزادِ من أهاليها ـ جنحتْ في مكانٍ يسمى "**كهفَ كريستوفورس**" إلى الآنِ، وغرقتْ على الشاطئ، دونَ أن تفقدَ أحداً من رجالها، فجرَّها الملاحونَ إلى اليابسةِ، وحولوها إلى مساكنَ واستقروا فيها، **وقضى المكتشفُ العظيمُ سنةً في جزيرة جامايكا**، لقي في أول الأمرِ من سكانها ترحيباً، ثمّ تغيَّرتْ معاملتهم بعد أنْ أساء إليهم الرجالُ البيضُ القادمونَ، فابتعدوا عنهم ومنعوا الزادَ أن يصلَ إليهم، ولكنَّ الأميرالَ

الداهيةَ عرفَ كيف يقضي على تمردهم بحيلـــةٍ ذكيةٍ، حين تتبأ لهم بخسوفٍ يحصلُ للقمرِ قريبـاً ــ وكانَ عرفَ ذلك بالاستنادِ إلى تقويمٍ ألمـــاني (روزنامة) لعامِ 1474 يتنبأ بحصولِ الخُســـوفِ في ذلكَ الوقتِ ــ وأوهمهم أنه وحدهُ القادرُ على أن يضعَ له حداً، وعندما وقع الخسوفُ فعـــلاً، خافَ السكانُ الأصليونَ وأقلعوا عـــن تمردهــم وعاودوا مسالمةَ كولومبوسَ ورجالهِ!

وكانَ كولومبوسُ قد أرسلَ يطلبُ النجدةَ من الجزائر الأخرى التي اســتوطنها الإســبانيونَ، فجاءته سفينتان أقلتاه إلى مستعمرةِ **(دومينيـــك)** التي بناها أخواه، وعند وصوله إليها لم يجد مـــا

يغريه بالبقاء، فقررَ العودةَ إلى إسبانيةَ، مع أخيهِ بارتلميه وابنه الأصغر فرديناندَ الذي اصطحبهُ في هذه الرحلةِ الأخيرةِ، وحملتِ السفينتانِ المذكورتان ركبَ الأميرالِ الشيخِ العائدِ، وبعد كثيرٍ من العناء والمخاطرِ وصل كولومبوس إلى إسبانية في السابعِ من تشرين الثاني عام 1504، وهبط في الميناء دونَ أن يشعرَ به أحدٌ، فقد كانتْ إسبانية يومذاك مشغولةً بمرضِ الملكةِ الذي انتهى بوفاتها بعدَ ثلاثةِ أسابيعَ من وصولهِ، ولم يستطعِ الأميرالُ العائدُ أن يشارك في مأتم حاميته العظيمة لمرضهِ الشديدِ، وإنْ يكنْ حزنهُ لوفاتها أدْمى قلبهُ.

خاتمة

كولومبوس في نـهاية المطافِ الطويلِ

1504 ــ 1506 م

كانت وفاةُ الملكةِ **(ايزابلا)** خاتمة الفواجــــعِ في حكايةِ حياةِ كولومبوسَ، ذلكَ أن هذه المـــرأة العظيمة كانتْ علـــــى الـدَّوامِ **حاميــةَ الرائــدِ المكتشفِ العظيمِ**، لأنها كـــانت تــدركُ طبيعــةَ الدسائس والمؤامــراتِ الحــاقدةِ التــي أصبــحَ كولومبوسُ يتعــرضُ لــها مــن قبــلِ حســاده وخصومهِ بعدَ نجاحهِ الكاملِ في تحقيــق آمالــهِ الكبيرةِ، وبلوغهِ المكانةَ والمرتبةَ الرفيعــةَ بيــن نبلاء المملكةِ، وهو الرجلُ الفقيرُ الغريبُ الوافــدُ من إيطاليةَ على إسبانيةَ، وقـــد آمنــتِ الملكــةُ

باستقامةِ الرجلِ وشرفهِ في خدمةِ تاجها، فكـــانتْ تبسطُ عليهِ جناح رعايتها وعطفها، كما كـــــانتْ تدفع زوجها الملك فرديناند لتيسير أعمالِ الرجلِ وتحقيقِ مطالبه، فلمـــا غـــابتِ الملكـــةُ أصبـــحَ كولومبوسُ **يعاني أكبرَ المشقَّةِ للفوزِ بحقوقـــــهِ** والوصولِ إليها، إذ كانَ **الملكُ فرديناند لا يكترثُ كثيراً بالوفاء بوعودهِ**، وكانَ مرضُ كولومبـوسَ (في مفاصله وعينيه مع وطأة الملاريـــــا التـــي تعاودُهُ) يقعدُ به عن الاتصالِ بالملكِ الذي كــــان بلاطه كثيرَ التنقلِ من مدينةٍ إلى أخرى!

وعندما استطاعَ الأميرالُ الشيخُ أخـــيراً أنْ يحظى بمقابلةِ الملكِ، سرهُ أنْ يستمعَ العاهلُ إليـهِ بعطفٍ ظاهرٍ وتقديرٍ ملحـــوظٍ، ولكـــنَّ الملـــكَ

فرديناندَ ظلَّ يحاولُ إقناع كولومبوسَ أنْ يتنــازلَ عن حصتهِ من المكاسبِ الاســـتعمارية مقــابلَ إقطاعه أرضاً في إسبانية وتمليكه إياها وإعطائه دخلاً مالياً ثابتاً ومضموناً من الدولةِ، ولم يخــفِ كولومبوسُ رفضهُ لذلك، وأصرَّ علـــى حقوقــهِ المتفقِ عليها، **فوعد بأنْ يمنح الملكُ ابنه (ديغو) لقبَ حاكمٍ للمستعمراتِ الجديدةِ التي اكتشــفها،** وكانَ ديغو قد أصبحَ واحداً من أفــرادِ الحــرسِ الملكيِّ، وقد جعلهُ كولومبوسُ وريثهُ كما قدمنــا، وعندما اشتدَّ المرضُ علـــى الأمــيرالَ الشــيخ وأحسَّ بدُنوِّ أجلهِ استدعى كاتب العــدلِ وأملـــى عليهِ بحضورِ ولديه وأخيهِ بارتلمية **وصيته التي ثبتَ فيها توزيعَ إرثهِ على النحوِ التالي:**

" أطلبُ من ولدي ديغو أن يحصـــلَ علـــى كاملِ الامتيازاتِ التي كسبتها بسببِ اتفاقي مـــع الملكين فرديناند وايزابلا حولَ المنـــاطقِ التـــي اكتشفتها بإرادةِ الله، و أطلبُ منهُ أن يعطيَ قسماً من وارداتي إلى أقربائي الفقراء، وقسماً آخـــر لأخيهِ وعميهِ، وأن يدفعَ عشراً منها إلى مدينـــة جنوى وطني، وأن يقيم الصلواتِ على روحـــي وروح أبي وأمي وزوجي!".

وأضيفتْ إلى هذهِ الوصيةِ الأخيرةِ مذكراتُ الأميرالِ التي كتبـــها بخطـــهِ خـــلال رحلاتـــه الاكتشافيةِ.

وهكذا لفظ المكتشفُ العظيمُ أنفاسهُ الأخـــيرة في العشرين من أيار عام 1506 م بعد أن عـــاش

خمسةً وخمسينَ عاماً من حياةٍ حافلـــــةٍ بـــالآلامِ والآمال، والمكائدِ والأمجادِ، وكانَ يـــومَ وفاتـــه يرتدي ثوبَ الرهبانِ، وقدْ كانَ الراحـــلُ الكبـــيرُ طوال حياتهِ **عميقَ الحسِّ الدينيِّ، كثيرَ التقـــى والصـــلاةِ**، ودفـــنَ فـــي إســـبانية، فـــي ديـــر الفرنسيسكان، يوم وفاتهِ، ثم **نقلَ جثمانـــهُ إلـــى جزيرة (هايتي)** ودفنَ في كنيستها، وعندما انتقـلَ حكمُ الجزء الإسباني من تلـــك الجزيـــرة إلـــى فرنسة، نقلتْ رفاتُ كولومبوس إلى هافانا فـــي جزيرة (كوبا)، ويقالُ إن الذي نقلتْ رفاته إلـــى هافانا هو ابنه، وأنّ رفاتهَ هو مـــا تـــزال فـــي هايتي، وقد وجد قبرٌ في كنيسةِ هايتي عام 1877

م وعلى تابوته حروف ثلاثـــةٌ (ك.ك.أ = CCA) وهي الحروفُ الأولى مــــن اســم كريســتوف كولومبوس الأميرالِ، فاستدلوا من ذلك على أنــه قبرٌ مكتشفِ أمريكة الأميرالِ الأولِ!

* * *

ويلاحظُ الباحثون في سيرة الرجلِ العظيــم عظم النكرانِ الذي لقيهُ في فترات كثـــيرةٍ مــن حياتهِ، فقد **كان حمله الكبيرُ يقـــابلُ بالســخريةِ والهزء** عندما كـــان يحـــاولُ إقنـــاعَ الآخريـــنَ بمشروعهِ العظيمِ، واتهمَ بأنه مغـــامرٌ مجنـــون، وحاولَ بحارتهُ أن يتخلصوا منه بالقتل عندما نفد صبرهم قبل أن تلوح اليابسةُ في العالمِ الجديـــدِ

لأعينهم، وبعدَ نجاحـــهِ اصبــحَ الرجــلُ هدفــاً للدسَائسِ الحـــاقِدةِ والمُؤامَــراتِ والاتِّــهامات، فأُهينَ مرّاتٍ بالشكِّ في أمانتهِ واستقامتهِ، وكبـلَ بالقيودِ وألقي به في السجنِ مع أخويه، وأعيــــدَ كالمجرمينَ على هذه الحالِ إلى إسبانية، وهـــذه الخطوطُ الحزينةُ في حياته جعلتْ منـــها مأســاة بالغةَ المرارةِ، وهذه المرارةُ هي التـــي جعلتـــه يَرتدي ثَوْبَ الرُّهْبانِ إلى وفَاتِهِ، وهِيَ التي جَعَلَتْهُ يَذكرُ دائماً أنه ابن جنوى ويوصي بِجـــزءٍ مـــن وارِداتهِ لتلك المدينةِ التي أنجبتــــه، فقــد كــانَ النكرانُ الـــذي ذاقَ مرارتـــه مـــن المـــهاجرينَ الإسبانِ، وهو الذي شقَّ لهم الطريقَ نحو مستقبلٍ

أغنى وأرغدَ وأمجد، جرحاً لا يندملُ في أعمـاقِ نفسه، وقَدْ حَملهُ مَعَهُ آخِرَ الأمْرِ إلى قَبْرِه!

سَببُ مأساةِ كولومبوس انه **رجـلٌ عظيـمٌ سبقَ عصرهُ**، ولكنَّهُ علَى الرَّغـمِ مِـن جَميـع الأهْوالِ التي اعْترضَت طَريقَه لَمْ يُدركهُ اليـأسُ من قُدْرتهِ علَى تَحقيقِ أحْلامهِ، ولَمْ يَفقدِ لَحْظـةً ثِقته الكَبيرةَ بِنفسهِ، حتّى بَلَغَ ما أرادَ، وغَدا اسمه واحداً من المبرزينَ الخالدينَ بينَ رجالِ التـاريخِ الأعلامِ.

المحتوى

120

أعلام مبرّزون

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرزين من الشرق والغرب

١ - الاسكندر الأكبر
٢ - هنيبعل
٣ - أبو العلاء المعري
٤ - ابن بطوطة
٥ - ابن خلدون
٦ - كريستوف كولومبوس
٧ - وليم شكسبير
٨ - نابليون بونابرت
٩ - ليون تولستوي
١٠ - المهاتما

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والمصورات
بيروت - لبنان - ص. ب ٦٩١٨ / ١١
حلب - سوريا - ص. ب ٤١٥